فضيلة الدكتور
عبد الحليم محمود

العالم العابد العارف بالله
ذو النون المصري



دار الرشاد

العالم العابد العارف بالله

ذو النون المصري

الناشـــــر : دار الرشـــاد
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيـداع : ٢٠٨٩٦/ ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : 4 - 009 - 364 - 977
الطبـــــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : أرمس
العنـــــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف مجلس الأمة ـ القاهرة
تليفـــــون : ٧٩٦٤٤٠٤

الطبعة الثانية : ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤ م (الأولى للدار)
مـراجعـــة : محمد دياب
الغـــلاف : وائل حمدان
خطـــوط : لمعى فهيم

فضيلة الدكتور

عبد الحليم محمود

العالم العابد العارف بالله

ذو النون المصري



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

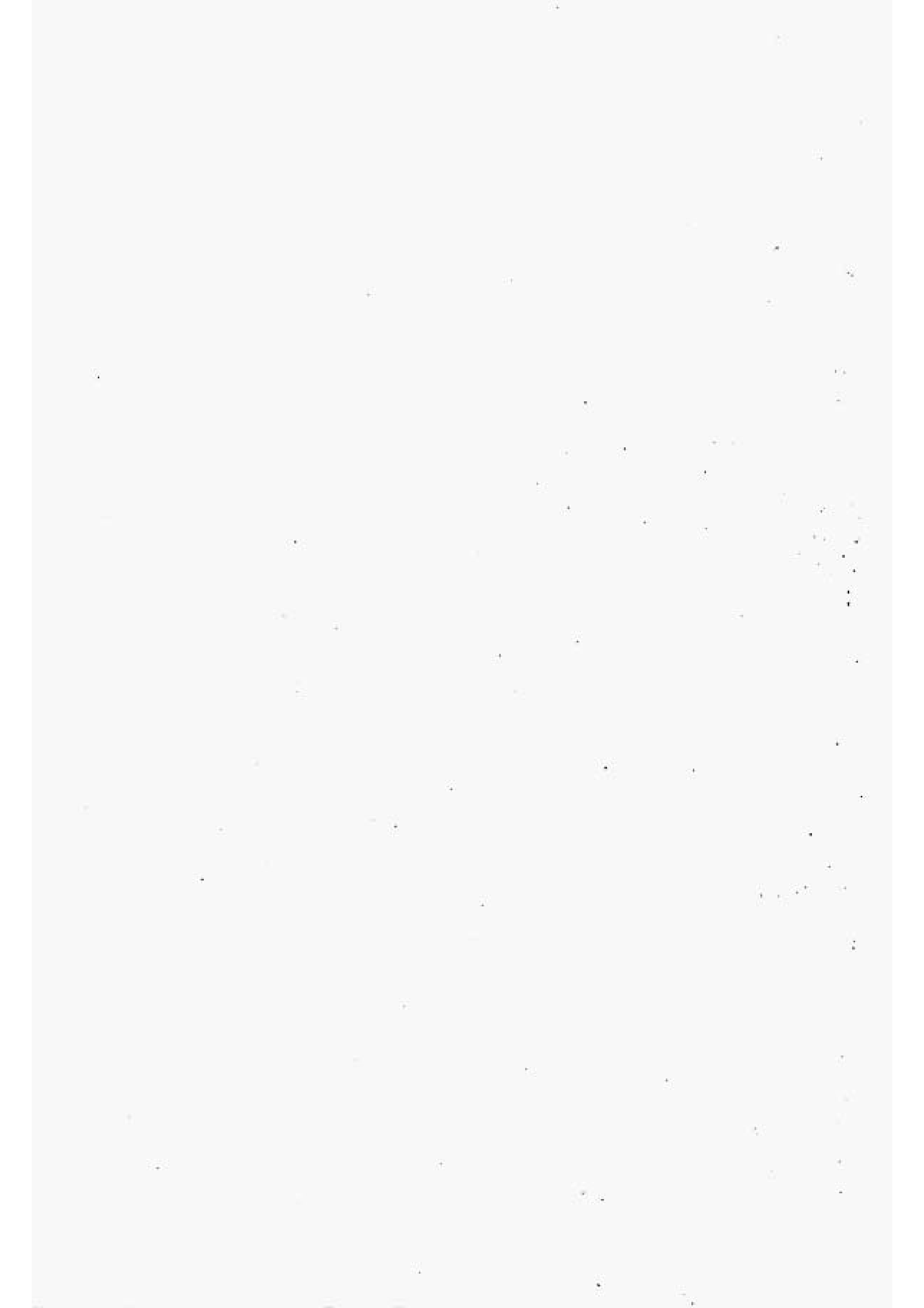
(سورة الكهف : ١٠)

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

(سورة البقرة : ٢٨٦)

يَارَبُّ
كَيْفَ لا أبْتَهِجُ بِكَ سُروراً
وَقَدْ كُنْتُ أكْدَحُ بِبَابِكَ حَتَّى
جَعَلْتَنِي مِنْ أهْلِ التَّوحِيْد ؟..

« ذُو النُّون »



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن المراجع الأساسية التى رجعت إليها عن ذى النون ، مراجع محدودة ، إنها :

١ ـ السر المكنون فى مناقب ذى النون للإمام السيوطى .

٢ ـ حلية الأولياء لأبى نعيم .

٣ ـ الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى .

٤ ـ طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى .

٥ ـ الكواكب الدرية للمناوى .

٦ ـ مجموعة ما ترجم عن المستشرق نيكلسون .

ثم يأتى بعد ذلك ما هو طبيعى لكل باحث : نص من هنا أو نص من هناك ، واستشارة لهذا الكتاب أو ذاك ، وكشف فى معجم من المعاجم أو فى أحد التفاسير .

هذه المراجع التى رجعت إليها هى المراجع الموجودة عن ذى النون . ورجوعى إليها وحدها لم يكن عن تقصير فى البحث أو التنقيب ، وإنما كان لأنها هى فقط الموجودة .

ومع قلة هذه المراجع فإننى لم أشعر بأننى فى حاجة إلى غيرها ، لقد كانت كافية بالنسبة إلى الهدف الذى كان أمامى .

إننى لم أكتب - وما أردت - عن ذى النون : رسالة دكتوراه ، ولا بحثاً أكاديمياً، وإنما أحببت ذا النون، فأحببت أن أكتب عنه لأشرك غيرى فى حبه ، وإن من حق ذى النون علينا أن نعرفه وأن نعرِّف به . . إنه عالم، وهو صوفىٌّ، وهو رجل أخلاق، وهو عبقرية من العبقريات، ثم هو مصرىٌّ.

ولقد أحببته منذ اللحظات الأولى للقراءة عنه .

لقد كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات حينما طلبت إلىَّ الإذاعة - إذْ ذاكَ - أن أكتب المادة التاريخية العلمية عن ذى النون لتتخذ من ذلك أساساً لتمثيلية عنه .

وعشت مع ذى النون فترة قصيرة ولكنها كانت نفيسة .

لقد عشت معه فى سياحاته الكثيرة الممتعة، وقد كان كثير الأسفار، وهو يقص بعض ما حدث له من مقابلات فيها الغرائب وفيها العظات والعبَر .

وعشت معه فى محنته ، وليس أمر المحن ببعيد عن ذوى العبقريات .

إن الجمهور لا يمكن أن يَرْقَى إلى مستوى العباقرة، والعباقرة لا يمكنهم أن يجاروا الجمهور فى مألوفاته .

والعالم يتغير من حال إلى حال بسبب هذا الصراع بين العباقرة والجمهور، ولكن الجمهور يألف شيئاً فشيئاً بعض أفكار العباقرة، ثم يأخذها عادات له، ولكنها هى نفسها تكون منطلقاً لعباقرة يأتون فيحدثون تغييراً ترفضه الجماهير ثم تألفه شيئاً فشيئاً، وهكذا دواليك .

ولقد امتُحن ذو النون وصبر على المحنة التى اعتبرها منحة ؛ لقد صبر عليها صبر الراضين الحامدين الذين يرون أن كل ما يأتى به المحبوب محبوب، والمحبوب هنا هو الله .

وخرج ذو النون من محنته خروج الراضين الحامدين أيضاً، فالأمر منه وإليه .

وعشت مع ذى النون متتلمذاً على روح صافية ترى الأمور بمنظار الربانيين . . وإن للربانيين نظرة بعيدة كل البعد عن نظرة غيرهم .

إنها نظرة هؤلاء الذين وصلوا إلى :

« كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا ، ورِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا » .

وهذه النظرة التى تكون نتيجة لجهاد النفس طويلاً حتى تَتَزكَّى وتصفو، يهبها الله تعالى منحتين :

* إحداهما :

«وإنْ سَألَنِى لأعْطِيَنَّه» .

* والثانية :

«ولَئِن اسْتَعَاذَنِى لأعيذَنَّه » .

بيد أن هذه النفوس الربانية وصلت إلى درجة لا تسأل فيها إلا سؤال عبادة .

إنها أيقنت بحكمة ربها، وبرحمته، فرضيت بثمار الحكمة والرحمة، وألقت بمقاليدها إلى الحكيم الرحمن .

ولكنه سبحانه قال :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(1) .

وهم يسألونه القرب وهو قريب ، إنهم يسألونه زيادة القرب ، وليس لزيادة القرب نهاية ، وهناك باستمرار قرب هو أقرب ممَّا يسبقه من قرب .

إنه سبحانه يقول :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (2) .

وهذا القرب هو أملهم ، كل أملهم .

وهم يستعيذون به استعاذة عبادة ، وذلك أنه - سبحانه - أمر بالاستعاذة :

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (3) .

ولكن هؤلاء قد وصلوا إلى الدرجة التي يقول سبحانه عنها :

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (4) .

والتي يقول الشيطان نفسه عنها :

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(5) .

(1 ، 2) سورة البقرة : 186 . (3) سورة الأعراف : 200 .
(4) سورة الحجر : 42 . (5) سورة الحجر : 40 .

أما غير الشيطان فإنهم لا يرونهم فى الحقيقة، وهل يرى هؤلاء مع الله أحداً. انظر إليه سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

إن الله - سبحانه - يملك الكيف، والكم، والزمن، والمكان، والحركة، والخلق، والأمر، ويملك القوة، والجاه، والمال، والذكاء، والأنفاس، والبصر فى العين، والسمع فى الأذن، ويملك نبضات القلب، وهمسات الفؤاد.

وهو سبحانه - كما يملك هبة ذلك إلى من يشاء - يملك نزعه ممن يشاء. إنه.. إليه يرجع الأمر كله.

يقول سبحانه:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾(٢).

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) ﴾(٣).

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

(٢) سورة الواقعة: ٥٨، ٥٩.

(٣) سورة الواقعة: ٦٣-٦٥.

(٤) سورة الواقعة: ٦٨-٧٢.

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢) .

ويقول تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ (٣) .

ويقول تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ (٤) .

إنه الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وإليه يرجع الأمر كله، ولا حول ولا قوة إلا به .

---

(١) سورة عبس : ٢٤ـ٣٢ .

(٢) سورة الأنفال : ١٧ .

(٣) سورة السجدة : ٢٧ .

(٤) سورة النور : ٤٣ .

وانظر إلى حديث ابن عباس حينما قال له رسول الله ﷺ :

« **يَا غُلام، إنِّي أُعلِّمُكَ كَلماتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجَاهَكَ، إذا سألتَ فاسْألِ اللَّهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللَّه، واعْلَمْ أنَّ الأمَّةَ لَو اجْتَمعتْ علَى أنْ يَنفعُوكَ بشَيء لَمْ ينفَعُوكَ إلا بشَيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ ، وإن اجْتَمَعُوا علَى أنْ يَضرُّوكَ بشَيء لَمْ يضرُّوكَ إلا بشَيء قد كَتَبَهُ اللهُ عَليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ** » (١) .

وفي رواية :

« **احفظ اللَّهَ تَجِدْهُ أمامكَ ، تعرَّفْ إلى اللَّه في الرَّخَاء يَعرِفْكَ في الشِّدَّة ، واعلمْ أنَّ ما أخطأكَ لمْ يكنْ ليُصيبَكَ ، وما أصابكَ لمْ يَكنْ ليُخطِئَكَ ، واعلمْ أنَّ النَّصْرَ معَ الصَّبرِ ، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكَرْبِ ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسْراً** » .

إن هذا الحديث العجيب النفيس الفاخر ، هو من شعارات الربانيين :

إنهم حفظوا الله فاطمأنوا إلى حفظه لهم ، وأنه تجاههم .

وتعرَّفوا إلى الله في الرخاء فاطمأنوا إلى تعرُّفه لهم في الشدة ، وكانوا له فكان لهم .

إنهم لا يرون معه سبحانه أحداً في التصريف : وهل معه أحد ؟

تأمَّلْ بربك هذه الآيات :

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

إن ذا النون كان من هؤلاء ، ومن أجل ذلك اعتبر محنته منحة ، إنه ما كان يشعر ـ طيلة محنته ـ إلا بالمعيَّة ، وكان يأنس ـ في محنته ـ بالمعيَّة .

إلام توصله هذه المعيَّة ؟ . . إلى خير بلا شك ، إلى خير أسمى ، أو إلى قُرْب أقرب ، إنه مغتبط بمحنته .

لقد عشت معه فيها مع ندرة الأخبار عنها .

وعشت معه أرافقه في مجالاته العلمية .

---

(١) سورة النمل : ٥٩ ـ ٦٤ .

وكما جاهد ذو النون حتى تزكَّتْ نفسه ، فقد جاهد أيضاً فى سبيل المعرفة : المعرفة فى مجالين على الخصوص ، وأعترف - فى تواضع لا أُشْكَرُ عليه - أننى لم أستطع - وقد حاولت - أن أجاريه فى أحد هذين المجالين ، وهو مجال الكيمياء . .

لقد حاولت أن أفهمه فى هذا المجال فما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

ويذكر ابن القفطى أن ذا النون اشتغل بالكيمياء ، ويرى أنه وصل فى الكيمياء إلى أن كان من طبقة جابر بن حيان فيها ، ويبدو أنه عالج الكيمياء على الطريقة الروحية ، كما عالجها على الطريقة العلمية المادية ، وكما أجرى التجارب من الجانب المادى فإنه أجراها من الجانب الروحى .

إن نيكلسون يقول :

«ومن الراجح أن ذا النون المصرى كان يستخدم الأدعية ، ويستعمل البخور ، أو على الأقل كان يفعل ذلك ، كما أخبرنا رجل زاره يوماً فرأى بين يديه طستاً من ذهب وحوله النَدُّ والعَنْبر يُسْجَر ، فصاح به ذو النون قائلاً :

« **هل أنت ممن يدخلُ على الملوكِ فى حال بسطهم** » .

وإن لذى النون رسائل فى الكيمياء موجود بعضها فى دار الكتب المصرية .

أما المجال الثانى فهو مجال العلم الروحى .

وما من شك فى أن وصول ذى النون إلى الصفاء والنقاء والطهر ، أدى به إلى الثمار الشهية من الإلهام المضىء ، الذى يعبر عنه فى سهولة ويسر .

وهذا الجانب هو الذى سرت معه فيه ، فكان نبراساً جميلاً نهتدى به ، ونحب أن نهدى إليه ، إنه يتصل بالتفسير الكريم ، وشرح الأحاديث الشريفة ، والسير على نسق الرسول ﷺ ، وعلى نسق المهتدين من الصحابة والتابعين .

ومن هنا كان حبى لذى النون ، وتقديرى له وكتابتى عنه ، وأرجو من الله التوفيق والهداية .

* * *

حياته

إنه أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى..

يقول عنه صاحب « الكواكب الدرية» :

« العارف الناطق بالحقائق ، الفاتق للطرائق ، ذو العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، والصفات الكاملة ، والنفس العالمة العاملة ، والهمم الجليَّة ، والطريقة المَرْضيَّة ، والمحاسن الجزيلة المتَّبعة ، والأفعال والأقوال التى لا تخشى منها تَبعة ، زَهَتْ به مصر وديارها ، وأشرق بنوره ليلها ونهارها » [1] .

ويقولون فى وصفه :

« كان رجلاً نحيفاً تعلوه حُمْرَةٌ » .

*** كيف كان ذو النون فى طفولته وشبابه ؟..**

فى ذلك يقول يوسف بن الحسين :

استأنست بذى النون ، فقلت له :

أيها الشيخ : ما كان بدء شأنك ؟

قال :

« كنت شاباً صاحب لهو ولعب » .

ونحب أن نقف ونقول أولاً : إنه كان يعيش الحياة العادية للشبان لا يعبأون بوقت يمر لا يشغلونه بما يفيد ، ولا تعنى الكلمة أنه كان عاصياً سيِّئ الأخلاق ، لأنه يقول بعد ذلك :

---

(١) الكواكب الدرية ص ٢٢٣ .

« **وخرجتُ حاجاً إلى بيت الله الحرام** » .

ثم يقول :

« **ومعي بضيعة في المركب مع تجار من مصر** » .

وهذه الكلمة الأخيرة ، قد ترشد إلى أنه اشتغل في شبابه بالتجارة .

ويبدو أن هذه الحجَّة كانت الأساس في اتجاهه إلى الله .

والواقع أن الحج من الوسائل الكبرى للتوبة الصادقة والإخلاص والصدق ، وأن أعمال الحج منذ أن تبدأ بالتوبة ، ولبس الملابس البيضاء - ملابس غير مخيطة لم يدخلها المقص ، ولم تعمل فيها الإبرة ، ولم تُدَنَّسْ بالذنوب - وصلاة ركعتين مع النية التي تتجه إلى الله في العون والمثوبة ، ثم الجهر بالتلبية : أي : الاستجابة الخالصة لله في أعماله ، ثم بقية الأعمال التي تنتهي برجم مصدر الشر - إبليس - ثم الطواف على طهر ونقاء . .

إن كل ذلك فيما أفترض هو مبدأ تحوُّل ذي النون .

إني أفترض - إذن - أن هذا الحج كان من العوامل المهمة في حياة ذي النون ، وأنه فصل فيها بين مرحلتين :

* **إحداهما:** المرحلة العادية الأولى .

* **والثانية :** هي مرحلة التزكية .

ومع ذلك فهناك مجال لاحتمالات أخرى . . وهذه الاحتمالات نأخذها على أنها رمزية جميلة في رمزيتها ، أو نأخذها على أنها حقيقة عجيبة في وصفها .

أحد هذه الاحتمالات : ما روى من أنه سئل عن سبب توبته . . فقال :

« خرجتُ من مصر لبعض القرى ، فنمت في الطريق في بعض الصحارى، ففتحت عيني، فإذا بقُبَّرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض، فخرج منها سكرجتان: إحداهما ذهب، والأخرى فضة. وفي إحداهما سمسم، والأخرى ماء ، فجعلتْ تأكل من هذه ، وتشرب من هذه ؛ فقلتُ: حسبي، قد تبتُ ، ولزمتُ الباب إلى أن قَبِلَني » [1] .

هذه هي قصة الاحتمال الثاني .

وما من شك في أن الرزق مضمون ، وأن الله سبحانه قد ضمن الرزق :

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [2] .

ثم يقسم الله تعالى على ذلك فيقول :

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [3] .

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [4] .

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم .

(٢) سورة الذاريات : ٢٢ .

(٣) سورة الذاريات : ٢٣ .

(٤) سورة هود : ٦ .

وهذه القصة التى تُروى على لسان ذى النون : أهى قصة رمزية أراد بها ذو النون أن يوضح عناية الله بمخلوقاته، ورحمته بهم، ورعايته لهم، وهو سبحانه الرحيم الودود، الرءوف الرحيم، أرحم الراحمين، وخير الكرماء ؟

أم هى **قصة حقيقية** . . وأن لله تعالى عجائب فى الكون تظهر لذوى البصيرة، لا يعدها عد ، ولا تحدها حدود ؟! . .

وليست القصة بمستحيلة ، وإنها لفى غاية الجمال فى الدلالة على جميل عناية الله بمخلوقاته .

واحتمال ثالث: يقول صاحب «الكواكب الدرية» عن ذى النون :

وكان اسمه **ثوبان بن إبراهيم**، وقيل : **الفيض** ، وأصله من **النوبة** ، ثم نزل **إخميم** ، فأقام بها ، فسمع يوماً صوت لهو ودفاف .

فقال :

ما هذا ؟

قيل : عرس .

وسمع بجانبه بكاء وصياحاً .

فقال :

ما هذا ؟

فقيل : فلان مات .

فقال :

« **أعطى هؤلاء فما شَكروا ، وابتلى هؤلاء فما صَبروا**» . . وأقسم أن لا يبيت بالبلد ، فخرج فوراً إلى مصر فَقَطَنَهَا .

وهذه فى الواقع قصة عادية تحدث كل يوم . . ويمر بها الناس فلا تثير فى نفوسهم شيئاً .

ومع ذلك : فإنها عبرة للذين هيَّأ الله نفوسهم للتأمل فى عبَر الحياة حينما تمر بهم ، والحياة مليئة بالعبر ، يمر بها قوم فلا يلتفتون إليها ، ويمر بها آخرون فيفكرون ويتأملون ويدخلون فى نطاق من يقول الله تعالى فيهم :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١) .

لقد هيأ الله نفس ذى النون فى تلك الساعة ، فأثرت فيه عبرة الحياة ، فكانت الهداية .

وهذه الاحتمالات لا ينفى بعضها بعضاً ، ومن الممكن أن تكون قد تكاتفت وتعاونت ، فانتهت به إلى التأثير فى جميع أقطار نفسه ، فتابَ وأنابَ وسَلَكَ الطريق .

ثم إنها لا تنفى **احتمالاً رابعاً** له قيمته الكبرى فى نظرنا ، وذلك أن صاحب « الحلية » يقول : « وكان شيخُه فى الطريق **شقران العابد** » .

ـ هل كان **شقران** أساس هدايته ؟ . . هل تلقَّفه قبل أن تتحول به الحياة من طريق إلى طريق ؟ . . فكان الموجِّه له ، والمرشد له بعد الحج ؟

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

. . أم تلقّفه وهو فى حيرة يتحسس الطريق حتى يسير آمناً مطمئناً؟

ـ إنها احتمالات كلها ممكنة .

ولعلها جميعاً تعاونت فأخرجت لنا ذا النون المصرى ، رضوان الله عليه .

ومهما يكن من شىء . . فإننا نرى أن توبة ذى النون إنما بدأت برحلته هذه إلى الحج ، ويبدو أنه أخلص النية فى هذا الحج فرجع منه كيوم ولدته أمه .

ورسول الله ﷺ يقول :

«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنوبِه كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

ورسول الله ﷺ يتناسق مع القرآن الكريم فى هذا إذ يقول الله تعالى :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (١) .

والرفث : فحش اللسان ، **والفسوق** : فحش الجوارح ، **والجدال** : النزاع والمشاحنة .

إن ذا النون تأثر ـ لا شك ـ بالحج ، وهو حينما يتحدث عن هذه الحجة الأولى يتحدث معها عما شاهده فيها من تجليات الله على بعض عباده ، وأن ذلك أثَّر فى نفسه .

بيد أن العامل الحاسم فى حياة ذى النون إنما هو لقاؤه بـ « **شقران العابد** » .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وكان **شقران** شخصية ممتازة قوية، وإن كنا لم نعثر له على كتب أو ترجمة مستفيضة، ولكن الإمام الشعراني يقول عنه :

«**شقران المغربي العابد:** شيخ ذي النون المصري، عارفٌ ظَهَرَ ضياؤه، وطابَ ذِكرُه وثناؤه، كان ذا أحوال باهرة، ومقامات فاخرة».

ومن كلامه :

« إن لله عباداً خرجوا إليه بإخلاصهم ، وشمَّروا إليه بنظافة إسرارهم، فأقاموا على صفاء المعاملة، وبادروا إلى استماع كلامه بحضور أفهامهم، فعند ذلك نظر إليهم بعين الملاحظة فأجزل لهم المواهب، وحُقَّتْ لهم منه العطايا، فشمُّوا روائح القرب من قربه ، وهَبَّتْ عليهم رياح اللقاء من تحت عرشه، فتطايرت أرواح قلوبهم إلى ذلك الروح العظيم ، ثم نادت : لا بَراح » .

وقال :

« ألا خلٌّ خدوم ؟

.. ألا صديقٌ يدوم ؟

.. ألا حليفُ وداد ؟

.. ألا صحيحُ اعتقاد ؟

.. أين من استراحَ قلبه بحب الله ؟

.. أين من ظهرَ على جوارحه نور خدمة الله ؟

.. أين من عرفَ الطريق ؟

.. أين من نظرَ بالتحقيق ؟

.. أينَ من سُقِي فبَاح ؟

.. أين من بكيِ وناح ؟

ـ أولئك تحفُّ بهم الملائكة بالليل والنهاروتسلِّم عليهم الحيتان من البحار » .

ومن كراماته :

أنه أراد ليلة أن يغتسل فلم يجد ماء ، فلحظ إلى السماء وقال :

« اللهم قد عجزتُ عن الماء ، وانقطع رجائي من غيرك، فاعطفْ على قلة حيلتي، فسمع وقع الماء في الإناء فقام إليه فوجده بارداً، فحرَّك شفتيه فإذا به قد سخن ... » .

«وقد مات بمصر ودفن بالقرافة بقرب قبر عقبة » . . اهـ .

ـ أين التقى به ذو النون ؟.. وكيف أخذ العهد عليه ؟

ـ وما هي الكيفية التي رسمها له ليسير في معراجه إلى الله ؟

كل هذه أسئلة لا نجد لها جواباً من التاريخ ، ولكنها أسئلة ليست بجوهرية في موضوعنا ، ذلك أن الطريق الذي يرسمه الشيخ ـ كل شيخ صادق ـ معروف في جوهره : إنه يبدأ بالتوبة الصادقة النصوح .

وهذه هي الخطوة الأولى الأساسية . . وهي خطوة من صميم الشرع ، فالتوبة من الذنوب واجبة ، بل هي مطلوبة ، ولو لم تكن هناك ذنوب من الذنوب المتعارف عليها ، وقد قال الله سبحانه :

﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

أى : الذين يكثرون من التوبة ، وما التوبة إلا خضوع وتضرُّع وتذلُّل ، فهى من صميم العبودية ، ومن أجل أنها من صميم العبودية كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره فى اليوم مائة مرة .

ولقد حث الله عباده على التوبة بشتى الأساليب ، من ذلك قوله تعالى فى حديث قدسى ، فيما رواه الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالى :

« يَا عبَادى : إنَّكُم تُخطئونَ بالليلِ والنَّهارِ ، وأنا أغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً ؛ فاسْتَغفرونى أغْفِرْ لَكُمْ » .

أى : استغفرونى استغفاراً صادقاً ، والاستغفار الصادق هو توبة صادقة ، فإذا فعل الإنسان ذلك غفر الله له وتاب عليه . والتوبة الصادقة تَجُبُّ ما قبلها ، إنها تضع التائب فى مرتبة **«البراءة»** . فإذا ما تاب المريد لقَّنه الشيخ : **« الذِّكْر »** .

والذكر من صفات أولى الألباب ، وذلك أن من صفاتهم ـ التى ذكرها الله سبحانه ـ أنهم :

﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (١) .

والأمر **بالذكر** فى القرآن الكريم استغرق الأزمنة والأحوال المختلفة للإنسان ، سواء أكان تسبيحاً أم تهليلاً وحمداً وتكبيراً وحوقلة .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

وهذه هى الباقيات الصالحات ، وهذه هى المنجيات الحاميات .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى عن النبى «ذى النون» عليه السلام :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1]

لقد نجَّاه التسبيح .

ولقد قال أحد من أصابتهم كارثة لإخوته :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾[2] ؟ .

أى أنهم لو اتَّبعوا كلامه وسبَّحوا الله لـمَا أصابتهم الكارثة .

ومن **الذكر** الذى يصفه الشيخ لمريده : الصلاة على الرسول ﷺ . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[3] .

فالشيخ - **إذن** - فى أخذه بيد المريد إنما يبدأ **بالتوبة** ويثنِّى **بالذكر.**

ولكن الشيخ وقد أخلص وجهه لله ، وملأ الله عليه جميع أقطار نفسه ؛ فأصبح ربانياً يقود مُريده عن طريق **الأسوة** أيضاً .

إن المريد يرى فى شيخه الاعتماد على الله والتوكل عليه وابتغاء مرضاته فى كل ما يأتى من الأمور وما يدع منها .

---

(١) سورة الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) سورة القلم : ٢٨ .

(٣) سورة الأحزاب : ٥٦ .

إنه يرى فى شيخه : الصدق ، والرأفة ، والرحمة ، ومواساة البائسين ، والعطف على المساكين ، وهداية الحيارى ، ويرى فيه التأسِّى برسول الله ﷺ ، والعمل بما أمر به القرآن ، والانتهاء عما نهى عنه القرآن . . فيقتدى بشيخه ، ويتأسَّى به .

التوبة ، الذكر ، الأسوة ، وأمر رابع هو تأثير الشيخ روحياً فى المُريد ، وهذه الظاهرة معروفة من قديم : إن نظرة الشيخ لمريده لها أثَرها .

ولقد وجد **ذو النون** فى **شقران العابد** الشيخ المرشد ؛ فاتبعه إلى أن أصبح هو نفسه شيخاً مرشدًا .

* * *

محنته

يقول الله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١) .

ولقد أخذ بعض المؤرخين يعدُّ أعداء الأنبياء من المجرمين ، ومن الممكن أن يعدَّ الإنسان أعداء أولياء الله من المجرمين أيضاً ؛ وذلك أن كثيراً من الناس قد ملأ الشر قلوبهم ، إلى درجة أنهم لا يتحملون رؤية الأتقياء الأولياء .

ومع أن الله سبحانه يقول في حديث قدسي :

« **مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ** » .

فإن الكثيرين يعادون أولياء الله لما في قلوبهم من شر ، ولما في نفوسهم من حب الإيذاء .

ولقد كان لذي النون أعداء .

إنهم أعداء التسامي في العلم ، وفي الخُلق ، وفي التصوف .

وتكتّل هؤلاء الأعداء . . يقول صاحب « الكواكب الدرية » عن ذي النون :

« ولمّا تكلّم بعلوم لدُنّيّة لا علم لأهل مصر بها ، وَشَوا به إلى خليفة بغداد ، فحُمل إليه في جماعة ، مغلولاً مقيَّداً ، فقُدّم للقتل ، فكلّم الخليفة ، فأعجبه ، فأطلقهْ ورفقته ، وقال :

« **إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم** » .

---

(١) سورة الفرقان : ٣١ .

ولكن أهل مصر قوم طيبون، فبمجرد أن رأوا ذا النون ـ وفي يده الغُلُّ وفي رجله القيد ـ أخذوا يبكون، وإذا بذي النون يعلن :

« **هذا من مواهب الله ومن عطاياه، وكل فعاله عذب حسن طيب** ».

ثم أخذ ينشد مخاطباً الله سبحانه بشعره :

لَكَ مِنْ قَلْبِي المكانُ المَصُونُ ... كُلُّ هَمٍّ فِيكَ يَهُونُ

لَكَ عَزْمٌ بِأنْ أكُونَ قَتِيلاً ... فِيكَ والصَّبْرُ عَنْكَ مَا لا يكونُ

ويقص ذو النون بعض أخبار من هذه المحنة فيقول :

« **لما حُملتُ من مصر في الحديد إلى بغداد لقيتني امرأةٌ زَمْنَةٌ ، فقالت** : إذا دخلت على المتوكل فلا تَهَبْهُ ، ولا تَرَ أنه فوقك ، ولا تحتجَّ لنفسك مُحقاً كنت أو متهماً ، لأنك إن هبته سلَّطه الله عليك ، وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالاً ، لأنك بَاهَتَّ الله فيما يعلمه، وإن كنت بريئاً فادعُ الله تعالى أن ينتصر لك، ولا تنتصر لنفسك فَيَكِلَكَ إليها .

فقلت لها : سمعاً وطاعة .

فلما دخلتُ على المتوكل سلَّمتُ بالخلافة .

فقال لي : ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة ؟

.. فسكتُّ .

فقال وزيره : هو حَقيقٌ عندي بما قيل فيه .

ثم قال لي : لِمَ لا تتكلم ؟

فقلت :

يا أميرَ المؤمنين ، إن قلت لا كذَّبتُ المسلمين ، وإن قلت نعم كذبتُ على نفسى بشىء لا يعلمه الله تعالى منى ؛ فافعل أنت ما ترى فإنى غير منتصر لنفسى .

فقال المتوكل : هو رجل برىء مما قيل فيه .

فخرجت إلى العجوز ، فقلت لها: جزاكِ الله عنى خيراً.. فعلتُ ما أمرتنى به ، فمن أين لك هذا ؟

فقالت :

«من حيث خاطب به الهدهد سليمان عليه السلام» . . اهـ .

تريد بذلك ما قال الهدهد :

﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ (١) أى : عن مشاهدة .

وتريد قول الهدهد :

﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ (٢) » .

* * *

بيد أن قصة هذه المحنة انتهت إلى كثير من الخير ، ولقد فصَّلها بعض من كتب عن ذى النون من حيث خاتمتها ، وذكر البعض ما لم يذكره الآخرون ، ومن أجل ذلك نحب أن نذكر بعض ما ذكروه :

روى أبو نعيم فى «الحلية» عن إبراهيم بن يحيى اليزيدى قال :

لما حُمل ذو النون إلى جعفر المتوكل أنزله فى بعض الدور وأوصى به زرافة .

(١ ، ٢) سورة النمل : ٢٢ .

وقال : إذا أنا رجعت غداً من ركوبي فأخرجْ إليَّ هذا الرجل .

فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين أوصاني بك .

فلما رجع من الغد، قال له :

انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام .

فلما خرج إليه قال له : سلِّمْ على أمير المؤمنين .

فقال ذو النون :

« ليس هكذا جاء الخبر .. إنما جاء في الخبر أن الراكب يسلِّم على الراجل » .

فتبسَّم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام ، فلما نزل قال له :

ـ أنت زاهد أهل مصر ؟

قال :

« كذا يقولون ».

فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد ، فأطرق ملياً ثم قال :

ـ « يا أمير المؤمنين إن لله عباداً عبدوه بخالص من السرّ ، فشرَّفهم بخالص من شكره ، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فُرْغَى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سرٍّ ما أسرُّوا إليه .

أبدانهم دنيوية ، وقلوبهم سماوية ، قد احتوت قلوبهم من المعرفة حتى كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفُرَج وأطباق السموات ، لم يخبُّوا في ربيع الباطل، ولم يرتعوا في مصيف الآثام ، ونزَّهوا الله أن

يراهم يتواثبون على حبائل المكر : هيبة منهم له ، وإجلالاً أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم ، وبكثرة من العيش مزهودة، فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أهل المعرفة بالأدواء، والنظر فى منابت الداء، فقال لهم:

إنْ أتاكم عليلٌ مِنْ فَقْدى فداوُوه ، أو مريضٌ مِنْ ذِكْرى فادنوه ، أو ناسٍ لنعمتى فذكّروه، أو مبارز لى بالمعاصى فنابذوه، أو محب لى فواصلوه. يا أوليائى، فيكم عاتبت، ولكم خاطبت، ومنكم الوفاء طلبت ، ولا أحب استخدام الجبَّارين ، ولا تولّى المتكبرين، ولا مصافاة المترفين..

يا أوليائى وأحبَّائى، جزائى لكم أفضل الجزاء، وإعطائى لكم أفضل العطاء، وبذلى لكم أفضل البذل، وفضلى عليكم أوفر الفضل، ومعاملتى لكم أوفى المعاملة، ومطالبتى لكم أشد المطالبة ، أنا مقدِّس القلوب ، وأنا علاَّم الغيوب، وأنا أعلم بمجال الفكر ووساوس الصدور، من أرادكم بسوء قصمته، ومن عاداكم أهلكته».

ثم قال ذو النون :

« وَرَدَتْ قلوبهم على بحر محبته ، فاغترفت منه ريّاً من الشراب .. فسهل عليها كل عارض عرض لها دون لقاء المحبوب ، قد سكنت لهم النفوس ، ورضوا بالفقر والبؤس ، واطمأنت جوارحهم على الدُّؤوب على طاعة الله بالحركات ، وظعنت أنفسهم عن المطاعم والشهوات ، فتوالوا بالفكرة ، واعتقدوا الصبر ، وأخذوا بالرضا ، ولهوا عن الدنيا ، وأقرُّوا بالعبودية للملك الديَّان ، ورضوا به دون كل قريب وحبيب ،

فخشعوا لهيبته ، وأقروا له بالتقصير ، وأذعنوا له بالطاعة ولم يبالوا بالقلَّة .

إذا دخلوا فأهل تُقَى ، وإذا عوملوا فإخوان حياء ، وإذا تكلموا فحكماء ، وإذا سئلوا فعلماء ، وإذا جُهل عليهم فحُلماء ، فلو رأيتهم لقلت : عَذَارَى فى الخدور ، قد تحركت لهم المحبة فى الصدور ، بحسن تلك الصور التى قد علاها النور ، وإذا كشفت عن القلوب رأيت قلوباً لينة منكسرة وبالذكر نائرة وبمحادثة المحبوب عامرة ، لا يشغلون قلوبهم بغيره ، ولا يميلون إلى ما دونه ، قد ملأت محبة الله صدورهم فليس يجدون لقرب المخلوقين شهوة ، ولا بغير الأنس بمحادثة الله لذة ، إخوان صدق ، وأصحاب حياء ووقار ، وتُقًى وَوَرَع ، وإيمان ومعرفة ودين ، فاستقبلوا الوفاء بالصبر على لزوم الحق ، واستعانوا بالحق على الباطل ، فأوضح لهم الحُجَّة ، ودلَّهم على المَحَجَّة ، فرفضوا طريق المهالك ، وسلكوا خير المسالك ، أولئك هم الأوتاد الذين لهم تُوهب المواهب ، وبهم تُفتح الأبواب ، وبهم يُنشأ السحاب ، وبهم يُدفع العقاب والعذاب ، وبهم يُسقى العباد والبلاد .. فرحمة الله علينا وعليهم » .

لقد سبق أن ذكرنا أن المتوكل بعد أن سمع كلام ذى النون قال :

« **إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم** » .

ويبدو أن المتوكل أخذ ـ بعد ذلك ـ يستدعى ذا النون ويسمع منه ، فصاحب «السر المكنون» يذكر قصة طويلة يطلب فيها المتوكل من ذى

النون أن يحدثه بأعجب ما رأى فى سياحاته، ويحدثه ذو النون، ولعل من آثار ذى النون هذا السلوك الذى اتخذه المتوكل بالنسبة لأهل السنّة من إيقاف التنكيل بهم، ومن اضطهادهم .

ومما لا شك فيه أن ذا النون أثَّر فى نفس المتوكل من هذا الجانب، لقد أثر فيها إلى درجة أن المتوكل كان إذا ذُكر عنده أهل الورع يبكى ويقول:

« إذا ذُكر أهل الورع فَحَيَّهَلاً بذى النون » .

إن المتوكل فى صلته الوثيقة بالمعتزلة لم ير فيهم هذا اللون من العبودية لله، والصلة به، ومن الورع والزهد .

وما كان المعتزلة - فى يوم من الأيام - يتجهون هذا الاتجاه، أو يتحدثون بهذا الأسلوب المؤثر، أو تبدو شخصيتهم فى هذه الصورة التى ترى فيها قلوباً امتلأت بحب الله سبحانه . كلاً، وإنما كانت هذه الصورة كثيرة فى أهل السنَّة .

ومهما يكن من شيء ؛ فإنه قد آن الأوان لرجوع ذى النون إلى مصر معززاً مكرماً .

ومر ذو النون بحاجب المتوكل، هذا الرجل الذى عرف ذا النون عن قرب، فعرف عبادته وذكره وتسبيحه، ونحب أن نذكر هنا قصة عن وداعه لذى النون، يقول:

دخل عليَّ ذو النون ليودِّعنى ، فقلت له :

اكتبْ لى دعوة، ففعل، فقرَّبت إليه جام لوزينج، فقلت له : كُلْ من هذا فإنه ينفع الدماغ، وينفع العقل .
فقال :
« العقل ينفعه غير هذا ».
قلت : ما ينفعه ؟
قال :
« اتّباع أمر الله والانتهاء عن نهيه ، أما علمت أن النبى ﷺ قال: « إنَّما العَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنِ الله أمْرَهُ ونَهْيَهُ » .
فقلت له : أكرمنى بأكله .
قال :
« أريد ألذَّ من هذا ».
قلت : وأى شىء تريد .
فقال :
« هذا لمن لا يعرف الحلوى ، ولا يعـرف أكلها ، وإن أهل معـرفة الله يتخذون خلاف هذا اللوزينج ».
قلت : لا أظن أحداً فى الدنيا يُحسن أن يتخذ أجود من هذا، فإن هذا من مطبخ أمير المؤمنين المتوكل على الله .
قال :
« خُذْ لبابَ مكنون محض طعامِ المعرفة ، واعجنْهُ بماء الاجتهاد ..وطابقْ صفو الوداد ، ثم اخبزْ لوزينج العـبّاد بحرِّ نيرانِ نَفْسِ الزهّاد ، وأوْقِدْهُ بحطبِ الأسى .. » .

وهكذا أخذ ذو النون يحدِّثه بهذا الأسلوب المجازى عن مأكول أهل الله، حتى قال له :

« **ثم كُلْ بأنامل التفويض ، فى ولائم المناجاة ، بوجدان خواطر القلوب، فعند ذلك تفريج كرب القلوب ، ومحلّ سرور محبّ الملك المحبوب** ».

ثم ودَّعنى وخرج، رحمة الله عليه .

عاد ذو النون لمصر معزَّزاً مكرَّماً ، ولعل من مقادير الله سبحانه أن محنة ذى النون إنما كانت رسالة يؤديها إلى المتوكل الذى بدأ حياته بمعاداة أهل السُّنَّة، فلما أدى الرسالة ونصح للمتوكل انتهت مهمته فى بغداد، وعاد إلى مصر التى كان يهفو فؤاده إليها .

ولعل من تصرفات المقادير أن تكون هذه المحنة من الأسباب التى تجعل حياة ذى النون حياة هادئة ، فإنه وقد عاد معززاً مكرماً من عند الخليفة احترمه الوالى واحترمه غير الوالى ممن يسيرون فى اتجاهات الخليفة، يسخطون إذا سخط، ويرضون إذا رضى .

أكانت محنة ؟ . . أم كانت ـ كما عبَّر عنها ذو النون بقوله ـ :

« **هذا مِنْ مِنَح الله وعطاياه ؟** » .

* * *

وفاته

أما عن وفاة ذى النون فإننا نكتفى بنقل النصوص الآتية :
يقول صاحب « السر المكنون » :
« روى المنذرى فى تاريخه عن أبى محمد بن رمان بن حبيب النضرى قال :
لما مات ذو النون رأيت على جنازته طيوراً خُضراً ، فلا أدرى أى شىء كان؟ ومات عندنا بمصر ، فأمر أن يُجعل قبره مع الأرض » .
ويقول الإمام الشعرانى :
«منهم أبو الفيض ذو النون المصرى رضى الله تعالى عنه : واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وكان أبوه نوبيّاً ، توفى سنة خمس وأربعين ومائتين ، وكان ﷺ رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية .
ولما توفى ﷺ بالجيزة حُمل فى قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته ، ورأى الناس طيوراً خضراء ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره ﷺ » .
ويقول صاحب « الكواكب الدرية » :
«ودفن بالقرافة ، وقبره بها ظاهر مقصود بالزيارة ، وعليه أُنْسٌ ومَهَابة» .
وكلّموه ـ وهو فى النزع ـ فقال :
« **لا تشغلونى ؛ فقد عجبتُ من كثرةِ لُطْفِ الله بى** » .

* * *

المحدِّث المتَّبِع للسُّنَّة

إن الاقتداء برسول الله ﷺ من أجلّ الأمور التي يسعى إلى تحقيقها الصوفية، وهم يرون - في صدق - أن القرب من الله سبحانه لا يتأتى إلا بالسير في الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ .

إن الله سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾(١) .

وكيف يقتدي الإنسان برسول الله ﷺ إذا لم يكن على معرفة بسيرته، ومن أجل هذه المعرفة درس الصوفيةُ السيرةَ النبويةَ . .

درسوها في مظانِّها من كتب السيرة ومن كتب الحديث .

وبعض الصوفية خطا خطوة أخرى فاشتغل بالحديث وأصبح محدِّثاً، ومن هؤلاء : **الفضيل بن عياض.**

أما فيما يتعلق بذي النون فإنه درس السيرة دراسة مستفيضة، درسها ليقتدي بها ودرسها ليرشد إليها .

ودرس الحديث، بل وأسند الحديث عن الأئمة - رحمهم الله تعالى :

عن مالك ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، والفضيل بن عياض وغيرهم.

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

ولكنَّ أمْرَهُ في إسناد الحديث سار على ما وصف صاحب «الحلية» إذ يقول :

« **شَغَلَتْهُ الرعايةُ عن الرواية** » .

وذو النون هو الذى يقول :

« **من علاماتِ المحبِّ لله : متابعةُ حبيبِ الله فى أخلاقهِ وأفعالهِ وأمْرِه وسُننه** » .

﴿ **قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾[1] .

ومن كلمات ذى النون التى لها مغزاها فيما يتعلق باتِّباع السُّنَّة الشريفة ما يحدِّث به محمد بن سعيد الخوارزمى ، قال :

سمعت ذا النون ـ وقد سُئل عن المحبة ـ قال :

« **أنْ تحبَّ ما أحبَّ الله ، وتبغضَ ما أبغضَهُ الله ، وتفعلَ الخيرَ كله، وترفضَ كلَّ مَا يشغلُ عن الله ، وألاَّ تخافَ فى اللهِ لومةَ لائم، مع العطف للمؤمنين ، والغلظةِ على الكافرين ، واتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ فى الدِّين** » .

ومن الأحاديث التى أسندها ذو النون ما يلى :

يقول أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى :

حدثنا مالك بن أنس ، عن الزهرى ، عن أنس ، قال :

قال رسول الله ﷺ :

« **إنَّ للهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أحبَّةً منْ خَلْقهِ** » .

قيل : من هم يا رسول الله ؟

قال : « **أهْلُ القُرآنِ هُمْ أهْلُ اللهِ وخَاصَّتُه** » .

---

(١) سورة آل عمران : ٣١ .

ويقول أبو الفيض ذو النون: حدثنا فضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

« تَجَافَوا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فإنَّ اللهَ تَعالى آخِذٌ بيدِه كُلَّما عَثر »[1].

ولقد روى ذو النون هذا الحديث الشريف بعدة طرق.

ويقول رضي الله عنه: سمعت الفضل بن هانئ، سمعت مالك بن أنس رحمه الله، سمعت جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعت جبريل يقول:

« مَنْ قَالَ مِنْ أُمَّتِكَ - يَا مُحَمَّدُ - كلَّ يوم مائةَ مَرَّة: لا إلهَ إلا اللهُ الملكُ الحقُّ المُبِين، كانَ أماناً مِنَ الفقرِ وأُنْساً مِنْ وَحْشَةِ القبرِ، واستجلبَ به الغِنَى، واستقرعَ به بابَ الجنة »[2].

ويقول ذو النون: حدثنا مالك بن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ قالَ في كلِّ يوم: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ - مِائَةَ مَرَّةٍ - غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وإنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ ».

ويقول ذو النون المصري: حدثنا الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) روى من طرق أخرى.

(٢) ينبغي أن يفهم معنى هذا الحديث وأمثاله على وجهه الصحيح، أي: من قالها مؤمناً بها إيمان يقين يعصمه من أن يستسلم لغير الله من نزغة أو شهوة أو حب جاه أو مال... فمن قالها على هذا الوجه كانت لها ثمارها من الخيرات الكثيرة.

« الدُّنيا سِجْنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكَافِرِ » .

ويقول ذو النون المصرى : حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« مَنْ أتَى الجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » . . أخرجه الخطيب فى « رواة الحديث » . والحديث فى « الموطأ » .

ويقول ذو النون : حدثنا سفيان بن عيينة عن أبى بكر أنه سمع أنس ابن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ :

« يَتْبَعُ الميتَ ثلاثٌ ، فَيَرْجِعُ اثنانِ ويَبْقَى واحدٌ . يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ ومَالُهُ وعَمَلُهُ ، فيرجعُ أَهْلُهُ ومَالُهُ ، ويَبْقَى عَمَلُه »[1] .

ومن أقواله لرجل :

« ليكنْ آثر الأشياء عندك وأحبها إليك إحكام ما افترض الله عليك واتقاء مَا نهاك الله عنه ، فإن ما تَعبَّدك الله به خيرٌ لك وأفضل مما تختاره لنفسك من أعمال البر الذى لم يجب عليك وأنت ترى أنها أبلغ لك فيما تريد ، وإنما ينبغى للعبد أن يراعى أبداً ما وجب عليه من فرض يُحكمه على تمام حدوده، وينظر إلى ما نُهى عنه ، فيتقيه على إحكام ما ينبغي .

واعلمْ أن الذى منع العباد عن ربهم ، وقطعهم عن أن يذوقوا حلاوة الإيمان وما أعد الله لأوليائه وأعدائه ، حتى يكونوا كأنهم مشاهدون لها : التهاون عن إحكام ما افترض عليهم في قلوبهم وأسماعهم

---

(١) حديث صحيح .

وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم وبطونهم وفروجهم ، ولو أحكموها أدخل عليهم الفوائـد حتى تعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما ورَّثهم الله من معوناته وفوائد كراماته،ولكنهم حقروا محقرات الذنوب، وتهاونوا بما فيهم من العيوب ، فحُرِمُوا ثوابَ الصادقين » .

* * *

ذو النُّون العالِم

إن صلة رجال التصوف بالعلم ـ على وجه العموم ـ صلة وثيقة ، إنهم يتصلون ـ من قرب ـ بكتاب الله سبحانه : يتلونه متعبدين بتلاوته ، ويكثرون تلاوته متقربين إلى الله بها فيفتح الله عليهم الكثير من أنواره ، فيشيرون إلى هذه الأنوار ويتذكرون بعض ما فتح الله عليهم .

وهم يتصلون ـ عن قرب ـ بسنة رسول الله ﷺ ، وذلك من أجل الاقتداء به ، فيستفيدون منها لغة وأسلوباً ، وفقهاً وأنواراً . .

إن الذين أرّخوا للجنيد يقولون :

« كان (الكَتَبَةُ) يحضرون مجلسه لألفاظه ، والمتكلِّمون لتحقيقه ، والفقهاء لتقريره ، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه ، والصوفية لإشاراته وحقائقه ، وكان فقيهاً على مذهب أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة » . . وهو القائل :

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسُّنَّة » .

ولم يكن الجنيد بدعاً من الصوفية ، فالفضيل بن عياض كان إماماً فى الحديث وهو ممن أسند عنهم البخارى . .

ومعروف الكرخى ؛ كان أحمد بن حنبل وابن معين ـ كما يقول الغزالى ـ يختلفان إليه ويسألانه ، ولم يكن فى علم الظاهر مثلهما .

وسرى السقطى ؛ كان أوحد أهل زمانه فى علوم التوحيد .

والحارث المحاسبى هو ـ كما قال التميمى ـ : إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام . . . ويقول عنه الإمام الغزالى :

« المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال » .

وأبو سليمان داود الطائى . . يقول عنه الذهبى :

« كان إماماً فقيهاً ذا فنون عديدة » . .

وسهل التسترى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان يُسأل عن الزهد والورع والفقه وهو ابن عشر سنين فيُحسن الإجابة ، وهو القائل هذه الكلمة التى لها مغزاها العميق :

« ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد به افتقاراً إلى الله » .

وأبو تراب النخشبى تتلمذ على الإمام الشافعى ، وتتلمذ عليه الإمام أحمد بن حنبل .

ومنصور بن عمار ؛ كتب إليه بشر المريسى سائلاً :

ـ ما قولك فى القرآن ، أمخلوق أم لا ؟

فكتب إليه هذه الكلمة النفيسة :

« أما بعد ، عافانا الله وإياك من كل فتنة ، فإن يفعل فأعظم بها من نعمة ، وإلا فهى الهلكة . . . اعلم أن الكلام فى القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلَّف المجيب ما ليس له ، والله تعالى الخالق ، وما دون الله مخلوق . . . والقرآن كلام الله ، وانته إلى أسمائه التى سمَّاه الله بها تكن من المهتدين ، ولا تبتدع فى القرآنَ من قبَلكَ اسماً تكن من الضالين . .

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١)» .

ويوسف بن الحسين كان عالماً أديباً .

وأبو عبد الله الترمذى ؛ قال الحافظ ابن النجار فى تاريخه :

« كان إماماً من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث » .

وأبو بكر الوراق الترمذى له التصانيف فى الرياضيات .

وأبو سعيد الخراز له التصانيف فى التصوف سلوكاً وثمرة .

وأبو العباس أحمد الآدمى ، وهو القائل :

« مَنْ ألزم نفسه آداب الشريعة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه » .

وهو القائل :

« كل ما سُئلت عنه فاطلبه فى مفازة العلم ، فإن لم تجده ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فَزِنْهُ بالتوحيد ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان » .

وأبو حمزة البغدادى كان عالماً بالقراءات ، فقيهاً . .

وكان الإمام أحمد بن حنبل يثير أمامه المسائل ثم يسأله :

« ما تقول فيها يا صوفى ؟ » .

وإذا أردت أن أسير على هذا النسق أمكن عَدُّ مئات من الصوفية العلماء . .

ولابد للصوفى من العلم بسيرة رسول الله ﷺ حتى يحسن الاقتداء به ، فلابد له ـ إذن ـ من قراءة كتب الحديث والسيرة ، وفى ذلك علم كثير . .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

ومع أن صلة الصوفية بالعلم واضحة من خلال التاريخ ، فإنه يحسن بنا هنا أن نذكر ونذكِّر ببعض الأعلام فى العلم والتصوف . .

إن الشيخ الأكبر[1] معجزة من معجزات الدنيا ، لقد كان قمة فى الفلسفة ، وكان قمة فى التفسير ، وكان قمة فى الفقه ، وكان قمة فى اللغة ، وكان شاعراً . . وإذا أردت أن تقول إنه فى العلم الكَسْبِىّ لا مثيل له ، فإن لك من كتبه ما يبرر قولك .

بيد أن هذا العلم الكسبى يسير فيه - فى كل أجزائه - تيَّارٌ إلهامىٌّ يتجلَّى فى وضوح . .

ومن أجل هذه النفاسة فى إنتاجه يرى كثيرون ممن درسوا آثاره أنه أعظم شخصية علمية فى العالم ، وهو - من غير شك - حسنة من حسنات أتباع محمد ﷺ . .

والإمام الغزالى ؛ إنه قمة فى كل ما تناوله قلمه من أبحاث فى الفقه وفى أصول الفقه وفى الفلسفة وفى التصوف ، وكتابه « إحياء علوم الدين » - وهو أضواء من هدى الكتاب والسنة - خالد على الدهر . .

والإمام الشعرانى رضي الله عنه له من الآثار العلمية الكسبية الوهبية ما لا يكاد يحيط به محيط .

ونعود فنقول :

إن ذا النون لم يكن بدعاً من الصوفية فى الجانب العلمى ، ولقد كان من صفات ذى النون البارزة أنه كان طلعة ، وما سياحاته الكثيرة - التى سنذكر بعضها إن شاء الله - إلا أثراً من آثار هذه الصفة البارزة .

---

(١) هو محيى الدين بن عربى .

وكانت هذه الصفة تقود ذا النون إلى ارتياد المجاهيل فى العلوم، كما كانت تقوده إلى ارتياد المجاهيل من الأقاليم.

وتبدو شخصية ذى النون الحقيقية فى وضوح، فيما يذكره عنه ابن القفطى فى كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» حيث يقول:

«ذو النون بن إبراهيم الإخميمى المصرى، من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء، وتَقلُّد علم الباطن، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة.. وكان كثير الملازمة لبربا بلدة إخميم، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة، وفيها التصاوير العجيبة والمثلات الغريبة، التى تزيد المؤمن إيماناً والكافر طغياناً..

ويقال: إنه فُتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية، وكانت له كرامات»..

أما المسعودى - الذى توفى بعد ذى النون بمائة سنة كاملة - وكان أول مصدر تكلم عنه، فيخبرنا بأنه جمع معلوماته عن ذى النون من أهل إخميم، عندما زار هذا البلد، وهو يروى عنهم أن أبا الفيض ذا النون المصرى الإخميمى الزاهد كان حكيماً، سلك طريقاً خاصاً، واتخذ فى الدين سيرة خاصة، وكان من المعنيِّين بحل رموز البرابى فى إخميم، كثير الطواف بها.. وأنه وُفِّق إلى حل كثير من الصور والنقوش المرسومة عليها[1].

وكان الإمام فى هذا الطريق هو الإمام جعفر الصادق.. يقول صاحب كتاب «الصوفية فى الإسلام»:

---

(١) الصوفية فى الإسلام ص ٩، ١٠.

«جعفر الصادق - المتوفى سنة ١٤٨هـ - يذكر عنه ، كما يقول صاحب « تذكرة الأولياء » ، أنه ألَّف رسالة فى الكيمياء ، والفأل والتطيُّر ، وأن جابر بن حيان - الكيميائى المعروف - كان يُدعى جابراً الصوفى ، وأنه تقلَّد ما تقلَّد ذو النون المصرى « علم الباطن » . . الذى يطلق عليه ابن القفطى اسم : « مذهب المتصوفين من أهل الإسلام » (١) .

وقال السلمى : « دخلت عليه فرأيت بين يديه طستاً من ذهب ، وحوله نَدٌّ وعنبر ، فأعطانى درهماً ، فأنفقت منه إلى أن وصلت إلى مقصدى » . .

ويقول المستشرق نيكلسون :

« ويُؤْثَر عنه أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وعرف التوحيد بالمعنى الصوفى ، ففيما ذكرناه - فيما أعتقد - ما يكفى للدلالة على أن ذا النون لا أبا يزيد البسطامى - كما يعتقد مستر هونفيلد - كان له أكبر الأثر فى تشكيل الفكرة الصوفية » (٢) .

وعن عبد الحكم بن أحمد بن سلام الصدفى قال :

سمعت ذا النون المصرى يقول :

« قرأت فى باب مصر بالسريانية، فتدبرته، فإذا فيه: يقدِّر المقدِّرون والقضاء يضحك » .

ولعل مما يتصل بهذا الجانب - الجانب العلمى - وينيره بصورة أوضح ، أن نذكر الآن تقدير العلماء لذى النون . .

---

(١) الصوفية فى الإسلام ص ١١ .
(٢) الصوفية فى الإسلام ص ٨ .

قال أبو المحاسن : « إن ذا النون كان أول من تكلم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية » .

وقال عنه مسلمة بن قاسم : « كان عالماً صالحاً زاهداً ورعًا مفتيًا فى العلوم ، واحداً فى عصره » .

ويقول جامى : « هو رأس هذه الفرقة ، فالكل أخذ عنه ، وانتسب إليه ، وقد كان المشايخ قبله ، ولكنه أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق »[1] .

« وهو أحق رجال الصوفية - على الإطلاق - بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف »[2] .

« وهو العارف الناطق بالحقائق »[3] .

« وكان أول من تكلم بمصر فى ترتيب الأحوال ، وفى مقامات الأولياء فُحول الرجال ، فقال جهلة المتفقهة : إنه زنديق »[4] .

ويتحدث عنه صاحب «الحلية» فيقول :

« ومنهم العَلَم المَضىّ ، والحكَم المَرْضىّ ، الناطق بالحقائق ، الفاتق للطرائق . . . له العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، نظر فعبر ، وذكر فازدجر ، أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى ، رحمه الله تعالى » .

وأقام «سهل التسترى» سنين لا يسند ظهره للمحراب ولا يتكلم ، فلمَّا كان ذات يوم بكى ، واستند وتكلم ، وبالغ فى إبراز المعانى العجيبة والإشارات الغريبة . . فقيل له فيه ، فقال :

(١ ، ٢) الصوفية فى الإسلام ص ٧ .   (٣ ، ٤) الكواكب الدرية ص ٢٢٣ .

« كان ذو النون بمصر حياً فما تكلمت ولا استندت إجلالاً له، والآن قد مات فقيل لى: تكلَّمْ فقد أذنت » [1]. .

وقال ابن يونس:

« كان عالماً فصيحاً حكيماً، امتُحن وأوذى لكونه أتاهم بعلم لم يعهدوه ».

تقديره للعلم:

قال ذو النون:

« كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا، وتركاً لها .. واليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حباً ولها طلباً..

كان الرجل ينفق ماله على علمه، واليوم يكسب الرجل بعلمه مالاً..

كان يُرى على صاحب العلم زيادة فى ظاهره وباطنه، واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الظاهر والباطن ».

وكان يقول للعلماء:

« أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علماً ازداد فى الدنيا زهداً وبغضاً ..وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علماً ازداد فى الدنيا حباً وطلباً ومزاحمة .. أدركناهم وهم ينفقون الأموال فى تحصيل العلم وأنتم اليوم تنفقون العلم فى تحصيل المال »..

وكان يقول موجِّهاً الحديث للعلماء فى صلتهم بالحكام وذوى اليسار:

---

(١) الكواكب الدرية ص ٢٢٣.

« العجب - كل العجب - من هؤلاء العلماء: كيف خضعوا للمخلوقين دون الخالق، وهم يدَّعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق ؟! » .

وسئل ﷺ عن الحديث: لِمَ لا تشتغل به ؟

فقال :

« للحديث رجال ، وشغلى بنفسى استغرق وقتى ، والحديث من أركان الدين ، ولولا نقصٌ دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس فى زمانهم، ألاَ تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون دنياهم فحجبوهم واستكبروا عليهم ، وافتتنوا بالدنيا لما رأوا من حرص أهل العلم والمتفقهين عليها ، فخانوا الله ورسوله ، وصار إثم كل من تبعهم فى عنقهم، جعلوا العلم فخّاً للدنيا ، وسلاحاً يكسبونها به بعد أن كان سراجاً للدين يُستضاء به » .

ويحمل ذو النون حملة قوية على كل من ينحرف فى سلوكه من العلماء فيقول :

« قد غلب على العُبَّاد والنُّسَّاك والقُرَّاء - فى هذا الزمن - التهاون بالذنوب حتى غرقوا فى شهوة بطونهم وفروجهم ، وحُجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون ، أقبلوا على أكل الحرام ، وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحى أحدهم أن يقول - فيما لا يعلم - : لا أعلم.

هم عبيد الدنيا ، لا علماء الشريعة ، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح .. إن سَألوا ألحُّوا، وإن سُئلوا شَحُّوا ، لبسوا الثياب على

قلوب الذئاب ، اتخذوا مساجد الله التى يُذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال ، والقيل والقال ، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا ، فإياكم ومجالستهم » .

ونأتى هنا بنموذج من إجابات ذى النون عن بعض الأسئلة :

يروى أبو بكر بن أبى الدنيا ، قال : قال بعض المتعبدين :

كنت مع ذى النون المصرى بمكة ، فقلت له :

- رحمك الله ، لِمَ صار الوقوف بالجبل ولَمْ يَصِرْ بالكعبة ؟

قال :

« لأن الكعبة بيت الله، والجبل باب الله، فلمَّا قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرَّعون » .

فقيل له : يرحمك الله ، فالوقوف بالمشعر الحرام كيف صار بالحَرَم؟

قال :

« لمَّا أذن لهم بالدخول إليه أوقفهم بالحجاب الثانى وهى المزدلفة. فلمَّا طال تضرُّعهم أمَرَهم بتقريب قُربانهم فتطَّهروا بها من الذنوب التى كانت لهم حجاباً دونه وأذن بالزيارة إليه على طهارة » .

قيل له : فَلِمَ كُرِهَ الصوم أيام التشريق ؟

قال :

« لأن القوم زاروا الله ، وهم فى ضيافته ، ولا ينبغى للضيف أن يصومَ عند مَنْ أضافه » .

قيل له : يرحمك الله ، فتعلُّق الرجل بأستار الكعبة لأىِّ معنى ؟

قال :

« هو مثل الرجل تكون بينه وبين أخيه جناية : فيتعلَق بثوبه ، ويتضرَع إليه : ليغفر له جُرمه وجنايته » .

ويروى سعيد بن عثمان الخياط ، يقول :

سمعت ذا النون يقول ـ وقد سأله رجل ـ :

يا أبا الفيض ، رحمك الله ، من أراد التواضع كيف السبيل إليه ؟

فقال له :

« افهمْ ما ألقى إليك ، من أراد التواضع فليوجِّه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو ، ومَنْ نظرَ إلى سلطان الله ذهبَ سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته ، ومِنْ أشرفِ التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله ، ومعنى قول النبى ﷺ:

« مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ » . .

يقول :

« مَنْ تَذَلَّلَ بالمَسْكَنَةِ والفقرِ إلى الله رَفَعَهُ اللَّهُ بعِزِّ الانقطاع إليه» .

. . وبعد :

فإنَّا نختم هذا الفصل بقول ذى النون :

« تَكلَّمَ الناسُ مِنْ عَيْنِ الأعمال .. وتكلَّمتُ مِنْ عَيْنِ المِنَّة » .

* * *

الصُّوفىُّ ؟

إنه من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق.

الصوفية ؟

إنهم قوم آثروا الله على كل شىء؛ فآثرهم الله على كل شىء.

ـ من أين جاء هذا الاسم ؟

لقد سئل ذو النون: لمَ لزمتمْ هذا الاسم ـ اسم التصوف ـ وهل هو مشتق من معنى، أو لقب ؟

فقال:

« قيل: إن اسم الصوفية كان فى الأصل «صَفَوِيَّة» من الصفاء، وذلك أنهم يسترون العمل ويكتمونه فلا يشوبه الرياء.

وقيل: إنهم كانوا فى الأصل «صُفَّتِيَّة»، مأخوذ من أهل«الصُّفَّة».

وقيل: إنه اسم لزمهم على غير اشتقاق، وإنما هو لمن تَبَتَّل منقطعاً إلى الله من العباد، فأخلص المجاهدة.

وقيل: إنه عَلَمٌ غير مشتق من نسبة ولا عمل.

وكانوا يلبسون الصوف؛ لأنه أدْعَى إلى التقشف، وأشبه بلباس الصالحين.

وكان التصوف سمة المجتهدين فى العبادة ».

الطريق :

من طرائف ذى النون أنه سئل عن السَّفَلة من هم ؟

فقال :

« مَنْ لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرَّفه » .

والقرب من الله سبحانه وتعالى سعادة .

ويقول ذو النون :

« بأول قدم تطلبه تدركه وتجده » .

لابد من البدء بالطلب ، والطلب فى إخلاص وصدق ، وهذا طريق الإنابة .

وأما طريق الاجتباء فلا شروط له . . إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] .

للتصوف - إذن - طريقان : **طريق الاجتباء ، وطريق الإنابة** . . وعن ذلك يعبر ذو النون فيقول - فيما رواه يوسف بن الحسين - :

سمعت ذا النون يقول :

« **العطايا مواهب ، والطاعات مكاسب ، والناس رجلان :**

دَارِجٌ ، ووَاصِلٌ .

.. فالدارج سائر على طريق الإيمان.

.. والواصل طائر بقوة المعرفة.

.. ولكلٍّ دليل : فدليل الإيمان: العلم. ودليل المعرفة : الله تعالى .

.. فمتى يلحق السائر الطائر » .

ويلخص ذو النون الطريق إلى الله ، والسعادة التى تتأتى عنه فى إيجاز محكم جميل ، فيقول :

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .

« إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولَّدت من الخوف هيبة الله ، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة دامت طاعته لربه ، فإذا أطاع تولَّد من الطاعة الرجاء، فإذا استقرت درجة الرجاء تولَّدت من قِبَل الرجاء المحبة ، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه استتبعت درجة الشوق ، فإذا اشتاق أدَّاه شوقه إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم ، ونهاره فى نعيم ، وسرُّه فى نعيم، وعلانيته فى نعيم » .

ومدار الطريق - فيما يرى ذو النون - على أربع :

« حب الجليل ، وبغض الفانى القليل ، واتِّباع التنزيل ، وخوف التحويل » .

وينبغى للمريد أن يُحْكم الأصل، ثم يطلب الفرع ، كيف يسأل عن الزهد وهو لم يُحكم الورع، وقبل الورع التوبة، ولربما نظرت إلى الرجل يسأل عن الرضا وهو لا يدرى ما القنوع .

وإننا لا نتحدث هنا عن طريق الاجتباء فإنه فى حقيقة الأمر ليس طريقاً بالمعنى العادى :

إنه جذبة من جذبات الحق فى لحظة بعدها يتبدل المرء حالاً بعد حال، ويدخل رحاب الحق - جل وعلا - عبداً من عباده المخلصين .

لقد اختارته العناية منذ الأزل، وأدركته فى الوقت الذى اختارته الحكمة .

أما طريق الإنابة فهو الطريق بالمعنى العادى للكلمة ، ولابد فيه من الطلب ، فإذا صدقت النية فى الطلب وصدقت العزيمة جاءت الهداية :

﴿ **وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾(١) .

وإن قلّة تأسُّف إنسان - كما يقول ذو النون - على الحق إنما تكون من قلة قَدْر الحق عنده ، فإذا عرف الإنسان قَدْر الحق فإنه يسعى فى طلبه .

ما هو أول القَدَم الصادق فى طلب الله سبحانه ؟

إنه الفرار - من كل شىء - إلى الله :

﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾(٢) .

التوبة :

وأول مقام فى الفرار إلى الله التوبة الصادقة ، حتى يبدأ المسير إلى الله على طُهْر ، وحتى يكون العهد مع الله على ترك المعاصى .

وتوبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص تكون من الغفلة .

يقول ذو النون :

« **لله عبادٌ تركوا الذنوب حياءً من كرمه ، بعد أن تركوها خوفاً من عقوبته** » .

« **ولو قال لك الله تعالى : افعل ما شئت ، فلست آخذك بذنب . لكان ينبغى أن يزيدك كرمه استحياءً منه ، وتركاً لمعصيته ، إن كنت حراً كريماً عبداً شكوراً .. فكيف وقد حذَّرك ؟** » .

وهذا الذى يقوله ذو النون إنما يستلهم فيه قول رسول الله ﷺ :

« **نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ لو لم يَخَفِ اللهَ لم يَعْصِه** » .

لم يعصه حياء منه ، وهذا من صفات أصحاب النفوس الكريمة .

---

(١) سورة الشورى : ١٣ . (٢) سورة الذاريات : ٥٠ .

المُريد:

ومنذ أن يبدأ الإنسان الطريق بالتوبة الصادقة، يسمى « مُريدًا » .

ويوالى ذو النون النصح للمريد . . ومن كلامه :

« **إياك أن تكون للمعرفة مُدَّعياً ، أو بالزهد محترفاً ، أو بالعبادة متعلِّقاً ، وفِرَّ من كل شيء إلى ربك** » .

وتحذير ذى النون من التعلق بالعبادة إنما هو توجيه إلى أنَ الرقىَّ فى مقامات القرب إنما مردُّه إلى الله سبحانه ، لا إلى العبادة . . ولذلك يجب أن يكون تعلُّق المريد دائماً بالله ، لا بأعماله .

وليس فى طريق الفرار إلى الله عقبات ، وذلك أن الرزق مضمون والرزاق موجود ، يقول ذو النون معاتباً الذين لا يفرُّون إلى الله :

« **إن الله رَزَقَنا قُوْتَنَا ، وكلَّفنا دونَ طاقتنا ، فلا بما رَزَقنا اكتفينا ، ولا بما كلَّفَنا ائتمرنا** » .

وذو النون فى نصائحه للمريدين **يحذِّرهم** ـ باستمرار ـ « **الدنيا** » .

والدنيا فى عُرف الصوفية إنما هى الشهوات والأهواء ، وقد عبَّر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

وبقوله سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١) .

ويقول ذو النون :

« استقرت منازل الدُّجَى، وثبتت حُجج الله على خَلْقِه، فآخذٌ بحظه، ومُضَيِّعٌ لنفسه ، فمناره حكمته ، وحُجَّته كتابه : فقامت الدنيا ببهجتها فأقعدت المريد ، وألْهَت الغافل ، فلا المريد طلب دواءه ، ولا الغافل عرف داءه.

ثم خَصَّ الله خصائص من خلقه ، فعرَّفهم حكمته ، فنظروا من أعين القلوب إلى محجوب الغيوب ، فساحت أرواحهم في ملكوت السماء ، ثم عادت إليهم بأطيب جنى ثمار السرور، فعند ذلك صيَّروا الدنيا معبرًا ، والآخرة منزلاً ، هِمَّتُهم وقلوبهم عند ربهم...ولن تفنى النفس إلا بالعلم بالله » .

وقد سئل عن الآفة التى يُخدع بها المريد عن الله ، فقال :

« يُريه الألطاف والكرامات والآيات » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فَبِمَ يُخدع قبل وصوله إلى هذه الدرجة ؟

قال : « بوطء الأعتاب، وتعظيم الناس له، والتوسع فى المجالس ، وكثرة الأتباع، فنعوذ بالله من مَكْرِه وخَدْعه » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

قال: وسمعت ذا النون، وقد سئل:

- ما أساس قسوة القلب للمريد؟

فقال:

« ببحثه عن علوم رضيت نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها ».

ومن أهم النواحي التى كان يهتم بها «ذو النون» - فى نصائحه للمريدين - هى « الادعاء » . .

فهو يقول مثلاً:

« كل مدح محجوب بدعواه عن شهود الحق .. لأن الحق شاهد لأهل الحق، لأن الله هو الحق، وقوله الحق، ولا يحتاج أن يدَّعى إذا كان الحق شاهداً له . فأما إذا كان غائباً فحينئذ يدَّعى وإنما تقع الدعوى للمحجوبين ».

وقال:

« من ادَّعى مقاماً حُجب به عن الله ».

والمحققون لا يدَّعون . . يقول ذو النون:

« كلَّتْ ألسنة المحقِّقين عن الدَّعَاوَى .. ونطقت ألسنة المدَّعين بالدَّعَاوَى ».

وينصح المريد بالتزام العبودية:

« والعبودية: أن تكون عبدًا فى كل حال، كما هو ربك فى كل حال ».

وإذا خرج مريد من حوزة الأدب يرجع إلى حيث شاء.

ولكى يستفيد المريد لابد له - مع الأدب - من التواضع . .

يقول ذو النون :

« **يا معشر المريدين : من أراد منكم الطريق فَلْيَلْقَ العلماء بإظهار الجهل ، والزهَّاد بإظهار الرغبة ، والعارفين بالصمت . وذلك : ليزيده العلماء علماً ، والزهاد زهداً ، والعارفون معرفة** » .

قال الله تعالى :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[1] .

ولقد حرص ذو النون ـ الحرص كله ـ أن يجعل طريق المريد أول الأمر طريقاً ربانياً ، فبيَّن المسالك والمهالك .

لقد بيَّن علامات الانحراف وعلامات القبول . . عن سعيد بن عثمان عن أبي الفيض ذي النون المصري ، قال :

« **إن لله لَصفوةً من خَلْقه، وإن لله لخيرةً من خَلْقه** » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فما علامتهم ؟

قال :

« **إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحبَّ سقوط المنزلة** » .

قيل له : يا أبا الفيض . . فما علامة إقبال الله ـ عز وجل ـ على العبد ؟

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

قال :

«إذا رأيته صابراً، شاكرًا، ذاكرًا، فذلك علامة إقبال الله على العبد» .

قيل : وما علامة إعراض الله عن العبد ؟

قال :

« إذا رأيته ساهياً ، لاهيًا ، مُعْـرِضاً عن ذكر الله ، فذاك حين يُعرض الله عنه » .

ثم قال :

« وَيْحَكَ ، كَفَى بالمُعْرِضِ عن الله خسـراناً ، وهو يعلم أن الله مُقْبِلٌ عليه وهو مُعْرِضٌ عن ذكره » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فما علامة الأنس بالله ؟

قال :

« إذا رأيتـه يُؤنِسُكَ بِخَلْقه ؛ فـإنه يُوحِشُكَ مِنْ نـفسِه .. وإذا رأيـته يُوحشكَ مِنْ خَلْقه ؛ فإنه يُؤنِسكَ بنفسِه » .

ثم قال أبو الفيض :

« الدنيا والخَلْق لله عـبيد ، خَلَقَـهم للطاعة ، وضـمن لهم أرزاقهم ، ونَهاهم وحذَّرهم وأنذرهم ، فحرصـوا على ما نهاهم الله عنه ، وطلبوا الأرزاق ـ وقد ضمـنها الله لهم ـ فلا هم فى أرزاقهم اسـتزادوا ، ولا هم للطاعة استجابوا » .

ثـم قـال :

« عَـجَبـاً لِقُلُوبِكُمْ .. كَـيْفَ لا تَتَصـدَّع ؟!! .. ولأجـسَامِكُمْ .. كَـيْفَ لا تتضعضع ؟!!.. إذا كنتم تَسمعون ما أقول لكم وتعقلون !!» .

ومن أقواله :

« **إن المريد إذا صدق سَعْيُهُ فيما بينه وبين الله حلاّه في صدور المؤمنين ، وحلّى ذكره في أفواه المحسنين ؛ شغلهم شغلٌ يغلب على جميع الاشتغال ، وحبهم له يحول بين الأهل والمال** » .

ويوجب ذو النون على المريد ألاّ يقول شيئاً إلا إذا كان مستندًا إلى حجة من الكتاب والسنة ، وفي ذلك يقول :

« **أشَدُّ المريدين نفاقاً : من لحظ لحظة ، أو نطق بكلمة بلا حجة استبانها فيما بينه وبين ربه** » .

وقال :

« **أخْفَى المريدين نفاقاً : من تكلم بكلمة ، أو عمل عملاً على سبيل الغفلة ، ثم سئل عن الحجة في ذلك فاحتج بحجة لم تقع له قبل الفعل استنادًا عن الناس واستحساناً لقوله** » .

وننتهي في هذا بهذه النصيحة التي يُسديها ذو النون للمريدين :

عن العباس بن حمزة ، قال :

« دخلت على ذي النون وعنده نَفَرٌ من المريدين وهو يقول لهم :

« **توسَّدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نُصْبَ أعينكم إذا قمتم ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولابد لكم من الآخرة** » .

الذِّكْـر:

إن المُريد ، بعد أن يأخذ على شيخه العهد على التوبة ، يبدأ - فيما يبدأ به - بالذكر .

والذكر فى عُرف القوم ركن مهم من الأركان التى لابد منها للقرب من الله سبحانه وتعالى .

ولقد أمر الله تعالى بالذكر ، إنه سبحانه أمر بالذكر الكثير ، ولم يحدد له وقتاً وإنما أطلقه إطلاقاً ، فهو مطلوب فى الصباح ، وفى المساء ، وفى الآصال ، وفى الضحى ، وفى الليل ، وفى كل وقت .

ولم يحدد الله سبحانه له حالة بعينها ، فهو مطلوب إذا كان الإنسان قائماً ، وإذا كان قاعداً ، وإذا كان مضطجعاً .

وقد جعله الله من صفات ذوى الألباب .

ورتَّب الله عليه الكثير من الفوائد للعبد فى دنياه وفى أخراه .

والاستغفار من الذكر . . يقول الله سبحانه فى شأنه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[١] .

ويقول سبحانه :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾[٢] .

ويقول رسول الله ﷺ :

« مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ الله له مِنْ كلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجاً، ومِنْ كلِّ هَمٍّ فَرَجاً، ورَزَقهُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِب » .

---

(١) سورة هود : ٩٠ .

(٢) سورة نوح : ١٠ ـ ١٢ .

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه -:

« أُعطيتُ أمانين لأمّتي » . . ثم تلا:

﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾[1].

ثم قال: « **فإذا مضيت بقي الأمان الثاني: الاستغفار** ».

وكثرة التسبيح من الوسائل المنجية، يقول سبحانه:

﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[2]

ويقول سبحانه:

﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ** ﴾[3].

والصلاة على رسول الله ﷺ من الذكر، وعنها يقول الشاعر:

إذا كنتَ في ضِيْقٍ وهَمٍّ وفَاقَةٍ وأمْسَيْتَ مَكْروباً وأصْبَحْتَ في حَرَج

فصَلِّ عَلَى المُخْتَارِ مِنْ آلِ هاشِمٍ كَثِيرًا؛ فَإنَّ اللهَ يَأتيكَ بالفَرَج

أما الفائدة الكبرى للذكر الصافي المخلص، فهي القرب من الله سبحانه.

والصوفية يستعملون الذكر للقرب من الله تعالى.

ولذي النون الكثير فيما يتعلق بالذكر . . إنه يقول:

---

(١) سورة الأنفال: ٣٣.

(٢) سورة الصافات: ١٤٣، ١٤٤.

(٣) سورة القلم: ٢٨.

« من القلوب قلوب تَستغفر قبل أن تُذنب؛ فتُثاب قبل أن تُطيع » .

ولقد سئل عن الذكر ، فقال :

« هو غيبة الذاكر عن الذكر » .

ويقول :

« من ذكر الله ذكرًا على الحقيقة ؛ نسى في جنب ذكره كل شيء ، وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضًا عن كل شيء » .

ومن كلام ذى النون :

« مَن استأنسَ بشيء من الدنيا لم يجدْ صَافيَ لذَّة ذِكْر مَوْلاه » .

وقال أبو جعفر المغربى : سمعت ذا النون يقول :

« إذا أكرم الله عبداً ألزمه ذكره ، وألزمه بابه ، وتعرَّف إليه بالبر والفوائد ، ومدَّه من عنده بالزوائد ، ويصرف عنه أشغال الدنيا ، ويصرف عنه البلايا ، فيصير من خواص الله وأحبابه .. فطُوبَى له حياً وميتاً.

لو علم أبناء الدنيا بحظِّ المقرَّبين وتلذُّذ الذاكرين وسرور المحبِّين ؛ لماتوا كَمَدًا »[1] .

وقال ذو النون :

« من المحال أن تجد طعم ذكره ، ثم لا يشغلك به عما دونه » .

وكان ذو النون ينبه إلى أن من علامة إعراض الله عن العبد :

« أن تراه ساهياً ، لاهياً ، لاغياً ، مُعْرِضاً عن ذكر ربه .. تثقلُ عليه مُجَالَسَةُ الذاكرين » .

---

(١) أخرجه البيهقى .

وكان ينبه أيضًا إلى أن :

« **لكل قوم عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعُه عن ذكره** » .

وروى عن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« **لن ينال أحدٌ اليقينَ في المعرفة والتوكل إلا بدوام ذكر الله بالقلب، وكثرة مناجاته ، وقطع ما شغل القلوب عن ذكر الله ، والله ولى المؤمنين** » .

الورع:

ونعود إلى التوبة من جديد ونتحدث عن آثارها . .

إن التوبة إذا صدقت استتبعت - لا محالة - الورع .

والورع هو تحرِّى الحلال فى كل شىء ، وله شأنه العظيم فى التقوى ، وفى تنوير القلب .

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن تحرِّى الحلال متناسقاً مع القرآن الكريم فى ذلك :

عن عطاء عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا** ﴾[1] . فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال : يا رسول الله ، أُدْعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

« **يا سَعْدُ ، أطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدعوة ، والذى نَفْسُ محمد بيده ، إن الرجل ليقذفُ اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتَقَبَّلُ منه أربعينَ يوماً ، وأيُّما عبدٍ نَبَتَ لحمه من السُّحْتِ والربا فالنار أَوْلَى به** » .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٨ .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« يا أيُّها النـاس .. إن الله طيِّبٌ، لا يقبل إلا طيِّباً .. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(1).

وقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾(2).

ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب يا رب، فأنَّى يُستجاب لذلك »(3).

ويقول ذو النون:

« من لم يفتِّش على الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله - عزَّ وجلَّ ».

وذو النون - متابعاً للقرآن والسنة - لا يقصر الورع على الجانب المادي، وإنما يعممه على كل شيء، فقد قال له رجل مرة:

- إن امرأتي تقرأ عليك السلام . . فقال ﷺ:

« لا تُقرئونا من النساء السلام ».

إنه يحب أن يعيش في سلام مع قلبه ونفسه.

---

(1) سورة المؤمنون: 51. (2) سورة البقرة: 172.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي في جامعه، والإمام أحمد في مسنده.

على أن أمر الورع المادى سهل بالنسبة لذى النون ومن اتبعه على طريقته، لقد وصل ذو النون بالحياة المادية بالنسبة للمريد إلى حدها الأدنى، إنه يقول للمريد:

« من طلب مع الخبز ملحًا يأكله لم يفلح فى الطريق أبداً ».

وكان ذو النون يعنى بذلك ألاَّ يتكلف الإنسان شيئاً، فإذا وجد الخبز الحلال ففيه الكفاية، ولله الحمد والشكر، وإذا وجد - دون طلب - مع الخبز شيئاً آخر فإن فضل الله عظيم وله الحمد والشكر.

وكان ذو النون يحذِّر دائماً من الجرى وراء شهوة الطعام، إنه يقول:

« لا تسكنُ الحكمةُ مَعِدَةً مُلئتْ طعاماً ».

وكان يقول:

« ما شبعتَ من الطعام - قَطُّ - إلا عصيتَ أو هممتَ بمعصية ».

ولكن الأمر الشاق فى الورع هو الجانب الروحى، وهذا لابد له من جهاد النفس حتى تتزكى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾(1).

وهذا النوع من الجهاد مارسه ذو النون حتى تغلَّب على نفسه وهواه، وسيطر - بفضل الله - عليهما، وقال كلمته التى صدَّرنا بها هذا الكتاب:

« كيفَ لا أبتهجُ بكَ سروراً، وقد كنتُ أَكْدَحُ ببابكَ حتى جعلتنى من أهل التوحيد ».

---

(1) سورة الشمس: ٩.

الزهـد:

وإذا صدق الإنسان فى الورع قاده ذلك إلى الزهد، والزهد هو التحقق بقوله تعالى:

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1].

إنه عدم تعلق القلب بالدنيا، أو هو سيطرة الإنسان على دنياه بحيث لا تستعبده . . إنه:

ألاَّ يملكك شيء ولا يستعبدك شيء.

لقد تحدث ذو النون عن الزهد، وبيَّن بعض تعريفات الناس له، فقال:

« اعلموا - إخوانى - أن الناس قد تكلموا فى الزهد بمعان مختلفة، فبعضهم قال:

« **الزهدُ تَرْكُ حُبِّ المنزلة** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ تَرْكُ راحة النفوس من جميع ما تستريح إليه** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ تَرْكُ ما شَغَلَ عن الله** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ رَفْضُ الدنيا وقِصَرُ الأمل** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ الثقةُ بالله** ».

---

(١) سورة الحديد: ٢٣.

وقالت طائفة :

« **الزهدُ الإيثارُ لله وتَرْكُ كلِّ ما شغلَ عن الله** » .

وقالت طائفة :

« **الزهدُ إخراجُ المخلوقين من القلب، وحبُّ الخلوة** » .

ولعل ذا النون كان يرى أن كل هذه التعريفات صادقة ، والواقع أنه لا يتأتى أن يكذِّب الإنسان تعريفاً منها ؛ فكلها موجَّهة إلى الخير ، وإلى الرشد . . بيد أن ذا النون يضيف إليها - هنا وهناك - توضيحاً جديداً لبعض زواياها . . ولقد قال :

« **اعلموا أن صفةَ الزاهدِ مَنْ لم يطلبِ المفقودَ حتى يفقدَ الموجودَ** » .

وقال :

« **سُلِبَ الغِنَى مَنْ حُرِمَ الرضا، ومَنْ لم يُقنعه اليسيرُ افتقرَ في طلب الكثير** » .

وقال :

« **مَنْ وثقَ بالمقادير لم يغتمّ** » .

وقال :

« **من عرف الله رَضِيَ بالله وسُرَّ بما قَضَى الله** » .

وقال :

« **عليك بالقصد ، فإن الرضا بقليل الرزق يزكِّي يسيرَ العمل** » .

ومهما يكن من أمر الزهد ، ومهما يكن من منزلته الرفيعة فى التقوى ، فإنه ليس إلا مرحلة فى الطريق .

يقول ذو النون عن الزهّاد :

« الزُّهَّاد مُلوك الآخرة ، وَهُمْ فقراء العارفين » .

ومرة أخرى يقول :

« وَهُمْ مساكين العارفين » .

الزهد مرحلة، إنه مرحلة ضرورية، وهو يُسْلِم إلى التوكل .

التَّوكُّل :

والتوكل من المقامات السامية، ولقد وعد الله سبحانه أن يكون حَسْبَ المتوكلين، فقال :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١) .

ويشرح ذو النون بعض جوانب التوكل فيقول ـ كما رواه يوسف ابن الحسين ـ :

« إن الله خَصَّ أهل ولايته بالانقطاع إليه، ليعرِّفهم فضله وإحسانه فانصرفت هموم الدنيا عن قلوبهم ، وعَظُمَ شُغْلُ الآخرة فى صدورهم ، لما ركبها من هيبة ربهم ، فألزموا قلوبهم العبودية ، وطرحوا أنفسهم فى ساحة التوكل » .

قال الله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(٢) .

« فالمتوكل على الله قد اكتفى ـ بعلمه بالله ـ عن الاشتغال بغيره ؛ حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله ، لأنه لا مانع ولا معطى إلا الله ، فَلِمَ ترغب عن الله بجهلك ؛ فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان ؟!..

(١ ، ٢) سورة الطلاق : ٣ .

واعلم أن أخَصَّ المتوكلين عليه ، يحجب عنهم كل آمنة، فهم ينظرون إلى الله تعالى ، ولا يأملون غيره ، فقد حجب قلوبهم عمن سواه ، بما يرجون من إحسانه ، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره ..

واعلم أنك لا تكون متوكّلاً حتى تصفو من كل مالك، ولا ترى إلا الله وحده ، ولا تقدر أن تفر من رزقك ، كما لا تقدر أن تفر من الموت .. أما سمعت الله يقول:

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾(١) .

فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك،واعلم أن الله يرزقك بسبب وبغير سبب ، ألا ترى أنه وعدك أن يرزقك ، وغيَّب عنك علمه ، ولو احتلتَ ـ بكل حيلة ـ أن يأتيك قبل وقته أو بعد وقته لم تقدر على ذلك فيما قصد لك ، لا يمنعك غيره ».

« **والتوكل يزيد وينقص مثل الإيمان** ».

أما قوله :

« **فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك** » . . فإنه هو وما ماثله من التعبيرات التي تتحدث عن التوكل ، قد أثار الكثير من سوء الفهم ، ومن الجدل الناشئ عن سوء الفهم .

إن رسول الله ﷺ وكبار الصحابة من أمثال أبي بكر رضي الله عنه ، وعمر ، وخالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم ، كانوا من كبار المتوكلين على الله سبحانه ، وكانوا ـ وعلى رأسهم الرسول ﷺ ـ يتخذون لكل أمر

---

(١) سورة الروم : ٤٠ .

عدته، في الحرب، وفي السعي على المعاش، وفي تدبير الأمر الذي يوكل إليهم.

وكل ذلك اتباعًا لتوجيهات القرآن الكريم:

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾[1].

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[2].

﴿ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[3].

لقد اتخذ أسلافنا رضوان الله عليهم الأسباب لكل أمر، والعدة لكل حادث. . . ولكنهم لم يعتقدوا - في يوم من الأيام - أن الأسباب هي الفاعلة، إنها ليست إلهاً، والفاعل الحق هو الله سبحانه:

ومن هنا كان:

« إذا سألتَ فاسْألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله ».

إن الأسباب ليست مؤثرة بنفسها، وكل أمر مرجعه إلى الله :

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾[4].

إن الصالحين يتخذون لكل أمر عدته، ولكنهم لا ينسون أن الفاعل هو الله، إنهم لا ينسون الله في المبدأ . . فهو الموفِّق، ولا ينسون الله في الوسط . . فهو الميسِّر، ولا ينسون الله في الآخر . . فإليه المصير:

---

(1) سورة الملك: ١٥.

(2) سورة الأنفال: ٦٠.

(3) سورة المزمل: ٢٠.

(4) سورة هود: ١٢٣.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾[١] .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) ﴾[٢] .

وانظر معي إلى قوله تعالى :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣] .

وآيات الجهاد فى القرآن ، وآيات العمل ، وآيات كسب الرزق . . إن كل ذلك حث على الأخذ بالأسباب .

---

(١) سورة الواقعة : ٥٨ ـ ٧٢ .
(٢) سورة عبس : ٢٤ ـ ٣١ .
(٣) سورة التوبة : ١٤ .

ومع ذلك فإن السبب الأول والعامل الأخير مردُّه إلى الله .

ولقد كافح رسول الله ﷺ كفاح الأبطال متخذاً الأسباب فى الصغير والكبير من ألوان كفاحه ، وكان فى كل خطوة من خطواته معتمداً على الله تعالى .

وفى ضوء ذلك ينبغى أن نفهم فكرة التوكل عند الصوفية .

أما ثمرة التوكل . . فإنها الاطمئنان إلى النتائج ، وكأن العبد يقول : يا رب ، هأنذا قد بذلت كل ما أستطيع بوسائلى التى أملكها ، لم أقصِّر فى ذلك ، والنتيجة إليك وأنت الحكيم الرحيم ، عليك توكلت وإليك أنيب ، إنى واثق فى حكمتك ، مطمئن إلى رحمتك ، راض بقضائك .

ويَقول ذو النون فى التوكل :

« من توكَّل وثق ، ومن تكلَّف ما لا يعنيه ضيَّع ما يعنيه » .

وسأله رجل فقال :

- يا أبا الفيض ، ما التوكل ؟

فقال له :

« خَلْعُ الأرباب ، وقَطْعُ الأسباب » .

فقال له : زدنى فيه حالة أخرى ؟

فقال :

« إلقاءُ النفس فى العبودية ، وإخراجُها من الربوبية » .

وإذا صدق التوكل أسلم إلى الرضا . .

الرِّضا:

والرضا هو التسليم الكامل القلبى لكل ما يأتى عن الحكيم الرحمن . . إنه منزلة :

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾(١) .

ولن تجد بين المسلمين من لا يعترف بأن الرضا مقامٌ سامٍ ، وأنه المقام الذى يجب أن يكون عليه كل مسلم ، وذلك أن كل مسلم يعترف بأن الله أحكم الحاكمين ، وأنه أرحم الراحمين ، ومن كان كذلك فلابد من الرضا بقضائه .

وقد يجد الإنسان من يجادل فى مقام الزهد ، أما فى مقام الرضا فلا تجد - نظريًا - من يجادل فيه ، بيد أن واقع الناس يختلف عن نظرياتهم ؛ فواقع الناس هو عدم الرضا ، وكل صغيرة وكبيرة إنما هى محل شكوى ، وقليل جدًا من يقول فى كل أحواله : الحمد لله .

وإذا قالها فيما يرضيه فإنه لا يقولها فيما لا يتفق مع هواه .

وإن لذى النون - عن مقام الرضا - الكثير من النفائس ، إنه يقول :

« **طُوبَى لمن أنْصَفَ رَبَّهُ عز وجل** » .

قيل : وكيف ينصف ربَّه ؟

قال :

«**يقرُّ له بالآفات فى طاعته،وبالجهل فى معصيته، وإنْ آخَذَه بذنوبه رأى عدله ، وإن غفر له رأى فضله ، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره**

---

(١) سورة المائدة : ١١٩ .

ظالماً لما معـه من الآفات ، وإن قبلـها رأى إحسـانه لما جاد به من الكرامات » .

ويقول :

«**لم يحب الله من لم يَرْضَ بقدره،ولم يَرْجُ الله من لم يثق بقسمه**» .

وقال :

« **مَنْ وثق بالمقادير لم يغتمَ** ».

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« **من قال: لو...لكان ، فقد وَلَّى الأمر غير الله** » .

فإذا استمر المتصوف في مقاماته مع « الذكر » أسلمه ذلك إلى معرفة الله بالله .

المعرفة :

وذو النون يقسِّم المعرفة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول:

حظ مشترك بين عامة المسلمين .

القسم الثاني:

معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء .

القسم الثالث:

وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم .

ولقد سئل ذو النون عن كمال العقل وعن كمال المعرفة فقال :

« إذا كنت قائماً بما أُمـرت،تاركاً لتكلُّف ما كُفيت، فـأنت كامل العقل. وإذا كنت بالله ـ عز وجل ـ متعلقاً ، وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك ، فأنت كامل المعرفة » .

أما أغلب الأحوال التى استعبد الله سبحانه بها العارف ، فهى بحسب رأى ذى النون :

*** رؤية كل شيء منه.**

*** ورجوعه فى كل شيء إليه.**

*** وسؤاله إياه كلَّ شيء .**

والعارف ـ كما يقول ذو النون ـ لا يلزم حالة واحدة ، إنما يلزم ربه فى الحالات كلها .

أما عبادة العارفين ، فعنها يقول :

« إن لله عبادًا عبدوه بخالص من السِّرِّ فشرَّفهم بخالص من شكره، فهم الذين تمرُّ صحفهم مع الملائكة فُـرْغًى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سرٍّ ما أسَرُّوا له.

إن حظ العارفين فى الأشياء « هو » .. ومن أجل ذلك : لا يبالون ما فاتهم،مما هو دونه،والعارف فى كل يوم أخشع؛لأنه كل ساعة أقرب» .

وسئل ذو النون : بِمَ عرف العارفون ربهم ؟

فقال :

« إن كان بـشيء فبقَـطْع الطمع ، والإشراف منهم على اليـأس ، مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليـها، وبذل المجهود من أنفسهم ، ثم إنهم وصلوا ـ بعد ـ إلى الله بالله » .

وقال :

« **إن العارف استغنى بربه.. فمَنْ أغنى منه ؟ وورَّثه ذكره، وأناخه بفنائه ؛ فاستأنس به** » .

أما رسالة العارفين فهى :

* **نشر « لا إله إلا الله » فى مجالس الذاكرين.**

* **وتفريج كُرَب التوابين.**

* **والدلالة على الله بلسان التوحيد لجميع العالمين .**

ومع كل ذلك فإن لكل قوم - كما يقول ذو النون - عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وإذا ما وصل الإنسان إلى « المعرفة » فقد أصبح صوفياً .

* **وهنا يمكن أن نتساءل:**

- إذا ما وصل إلى المعرفة هل يتأتى أن ينتكس ؟

- أيمكن أن ينتكس الصوفى فيصبح من أهل الدنيا ؟

عن ذلك يقول ذو النون :

« **ما رجع مَنْ رجع إلا من الطريق ، ولو وصلوا إليه ما رجعوا .. فازهدْ فى الدنيا تَرَ العجب** » .

إن العارف لا ينتكس ؛ لقد قطع المقامات التى تربطه بالدنيا ، إنه أصبح ربانياً ، وأصبح قلبه خالياً مما سوى الله سبحانه ، إنه أصبح فى سعادة بالله ، أو أصبح - على حد تعبير ابن سينا - مبتهجًا بالله ، إنه وصل إلى الحالة التى يقول فيها الصوفية :

« نحن فى سعادة لو عَلِمَها الملوك لجَالَدُونا عليها بسيوفهم » .

إنها السعادة التى آثرها إبراهيم بن أدهم ﷺ على مَلاذِّ الدنيا كاملة موفورة ، وإنها السعادة التى آثرها الفضيل بن عياض على حياة الفُتُوَّة والشطارة ، وأمجاد القوة والغلبة ، وهى السعادة التى يؤثرها كل من وصل إليها على ما عداها .

أينتكس ؟ . . كلاَّ وحَاشَ لله أن ينتكسوا من وصلوا إليه .

إن مقام المعرفة هو مقام الواصلين ، وعن هذا المقام ينبثق مقام المحبة .

المحبة :

يقول ذو النون :

أموتُ..وما ماتتْ إليكَ صَبَابتى ... ولا رويتْ من صرفِ حبكَ أوطارِى

مُناى المنى كل المنى..أنتَ لى مُنًى ... وأنتَ الغِنَى كل الغِنَى؛ عندَ إقتارِى

وأنت نُهَى سُؤْلى وغايةُ رغبتى ... وموضعُ شكوايَ ومكنونُ إضمارِى

تَحَمَّلَ قلبى - فيكَ - مَا لا أبثُّهُ ... وإن طالَ سقمى فِيكَ أو طالَ إضرارِى

وبينَ ضلوعى منكَ مَا لكَ قد بَدَا ... ولم يَبْدُ باديهِ لأهلٍ، ولا جَارِ

أنرتَ الهُدَى للمهتدينَ ولم يكنْ ... مِنَ النورِ فى أيديهم عُشْرُ مِعْشَارِ

فَنَلْنِى بِعَفْوٍ منكَ : أَحْيَا بقُربهِ ... وغِثْنى بيُسْرٍ مِنكَ يَطردُ إعسَارِى

ويربط ذو النون المحبة والذكر . . فعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« وَيْحَكَ ، مَنْ ذَكَرَ الله على الحقيقة نَسِيَ في حبه كل شيء ، ومن نَسِيَ في حبه كل شيء حفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً في كل شيء » .

ويَعتبر ذو النون محبة الله سراً لا يجوز الخوض فيه لئلاً يسمعه العوام، وقد تذاكر القوم المحبة في مجلسه ، فقال :

« كُفُّوا عن هذه المسألة حتى لا تسمعها النفوس فتدَّعيها » ثم أنشد:

الخَوْفُ أولَى بالمُسِيءِ	إذا تألَّه والحَزَنْ
والحبُّ يَجْمُلُ بالتَّقِيِّ	وبالنَّقِيِّ مِنَ الدَّرَنْ

وهذا الموقف هو موقف المقدِّس للمحبة الذي يصل تقديسه لها إلى السمو بها حتى عن الحديث عنها .

وكان ذو النون يهيجه السماع ، إذا اتصل بحب الله سبحانه ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوّال منشد . . فابتدأ ينشد :

صَغيرُ هَوَاكَ عَذَّبني	فَكَيْفَ بِهِ إذا احْتَكَمَا
وأنتَ جمعتَ من قلبي	هَوًى قَدْ كَانَ مُشْتَرِكَا
أمَا تَرثي لِمُكْتَئِبٍ	إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكَى

فانتشى ذو النون ، ومن شدة نشوته سقط على وجهه وظل الدم يقطر منه وهو لا يدري .

ولحب الله على الحقيقة علامات منها ما حدَّث به محمد بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول :

« قلْ لمن أظهرَ حُبَ الله : احذرْ أن تذلَّ لغير الله . ومن علامة المحبِّ لله ألاّ يكون له حاجةٌ إلى غير الله ».

ومنها ما حدث به سعيد بن عثمان قال : سمعت ذا النون يقول :

« من علامة المحبِّ لله تَرْكُ كل ما شغلَ عن الله : حتى يكون الشغل كله به له »(١).

ويصف ذو النون مدى تعلق المحبين بربهم فيقول :

« خَوفُ النار إذا قِيْسَ إلى خوفِ القَطع عن المحبوب ، كقطرة الماء تُقذف في أعظم المحيطات ».

الـــوُدُّ :

وعن المحبة تنبثق أحوال عدة ، فعنها ينبثق حال « الود » وهو حال من الحالات الشريفة السامية ، ولقد سمى الله نفسه : الودود ، ويقول على لسان أحد رسله :

﴿ إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾(٢) .

والصوفية كثيراً ما يلجأون إلى هذا الاسم الشريف في دعائهم ، ومن ذلك قول شاعرهم :

ومُنَّ علينا يا ودودُ بجَذبةٍ   بِها نَلْحَقُ الأقوامَ مَنْ سَارَ قَبْلَنا

وعن الود يقول ذو النون :

« الحب لله عامٌ ، والودُّ لله خاصٌ : لأن كل المؤمنين يَذوقون حُبَّهُ ويَنالونه ، وليس كل مؤمن يَنالُ وُدَّه » .

---

(١) أخرجه البيهقي في «الزهد».   (٢) سورة هود : ٩٠ .

ثم أنشأ يقول :

مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد   هَجَر جميعَ العِباد
مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد   خَلَّى لذيذَ الرُّقاد
مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد   سَلَى طريقَ العباد
مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد   أنسَ بربِّ العباد

وعن المحبة ينبثق حال الأنس بالله . .

الأُنْس :

ويقول ذو النون عن ذلك :

« الأنس بالله من صفاء القلب مع الله ، والتفرُّد بالله : الانقطاع مِنْ كل شيء سوى الله ».

وفي تاريخ ابن عساكر عن أحمد بن قطن بن أبي قطن ، قال :

سئل ذو النون ـ وأنا حاضر عنده ـ :

ـ متى يجد العبد حلاوة الأنس بالله عز وجل ؟

قال :

« إذا قَطَعَ العلائق، ورَفَضَ الخلائق، وكـان مِنْ أهل الحقائق، وعَمِلَ بالرقائق ، فحينئذٍ ينجو من البَوائق » .

وقال :

« إذا أحبَّ القلبُ الخلوةَ، فقد أوصله حبُّ الخلوة إلى الأُنس بالله ، ومَنْ أنِسَ بالله استوحشَ من غير الله ، فلله دَرُّ قلوبٍ أنستْ بجلال الله، وارتعدتْ فزعاً لهيبته » .

وعن البرقى قال : سمعت ذا النون يقول :

« **الأُنس بالله نورٌ ساطع ، والأُنس بالخَلْق غَمٌّ واقع** » .

ولقد وصل ذو النون بالأنس بالله إلى منزلة يقول عنها :

« **أدْنَى منازل الأنس أن يُلْقَى فى النار فلا يغيب عن مأموله** » .

الشـــوق :

أما عن الشوق فيقول ذو النون :

« **الشَّوقُ أعلى الدرجات والمقامات ، إذا بَلَغَهُ استَبطأ الموتَ شوقاً إلى ربه ، وحباً للقائه والنظر إليه** » .

وعن أحمد بن يوسف قال :

سئل ذو النون عمن استحق الاشتياق ، فقال :

«**إذا استحقَّ الاشتياق قَرُبَ من باب الخَلَّاق،وشربَ مِنْ كأسِ المذَاق، فَشَاقَ واشْتَاق** » .

وهذه كلمات تلقى بعض الضوء على ما سبق أن ذكرناه فى باب التصوف :

« سأل أبو عبد الله بن سهل ذا النون : قال : متى أتوكل ؟

قال :

اليقين إذا تَمَّ سُمِّى توكُّلاً.

قلت : متى يتم حبى لربى ؟

قال :

إذا سَمُجتِ الدنيا فى عينيك ، وقَذَفْتَ أملك فيها بين يديك.

قلت : فمتى أخاف ربى ؟

قال :

إذا سَرَّحْتَ بصرك فى عظمته ، ومَثَّلْتَ لنفسك أمثال نقمته.

قلت : فمتى يتم صومى ؟

قال :

إذا جوَّعتَ نفسك من البغضاء ، وأمَتَّ لسانك من الفحشاء.

قلت : فمتى أعرف ربى ؟

قال :

إذا كان ما أسخطه عندك أمرَّ من الصبر.

قلت : فمتى أشتاق إلى ربى ؟

قال :

إذا جعلتَ الآخرة لك قراراً ، ولم تُسمِّ الدنيا لك مسكناً ودارًا.

قلت : فمتى أشتد فى بغض الدنيا ؟

قال :

إذا جعلتَ الدنيا طريقَ مخافةٍ لا تلتفتُ إلى ما قطعتَ منها، وجعلتَ الآخرة ساحةً مأمونةً لا تأمن إلا بالنزول فيها .

قلت : فمتى أحب لقاء ربى ؟

قال :

إذا كنت تقدم على حبيب ، وتصبر عن أمر قريب.

قلت : فمتى أستلذ الموت ؟

قال :

إذا جعلتَ الدنيا خلفَ ظهرك ، وجعلتَ الآخرة نُصْبَ عينيك.

قلت : فمتى أتَّقى شهوات مطاعم الأرض ؟

قال :

إذا خالطَ قلبك الملكوت ، ومُزج فى سَرائر الجَبروت.

قلت : فمتى تطيب معرفتى ؟

قال :

إذا استوحشتَ من الدنيا واشتدَّ فرحُك بنزول البلاء.

قلت : فمتى أستقبح الدنيا ؟

قال :

إذا علمتَ أن زينتها فساد كل معنى ، وأن محاسنها تُفضى إلى كل حسرة.

قلت : فمتى أكتفى بأهون الأغذية ؟

قال :

إذا عرفتَ هلاك الشهوات ، وسرعة انقطاع عذوبة اللذَّات.

قلت : فمتى القنوع التام ؟

قال :

إذا كان زخرف الدنيا عندك صغيراً ، وكان خوف الآخرة لك ذكرًا.

قلت : فمتى آمر بالمعروف ؟

قال :

إذا كانتْ شفقتُك على غيرك ، وخالفتَ العباد لمحبة ربك.

قلت : فمتى أُوثر الله ولا أُوثر عليه سواه ؟

قال :

إذا أبغضتَ فيه الحبيب ، وجانبتَ فيه القريب.

قلت : فمتى أفزع إلى ذكره، وآنس بشكره ؟

قال :

إذا سررتَ ببلائه ، وفرحتَ بنزول قضائه » .

الخلــوة :

والحديث عن «التصوف» يكون قاصراً؛ إذا لم نتحدث عن «الخلوة» .

وما من شك فى أن الخلوة فترة من الزمن ضرورية للمريد ، إنها تصرفه إلى الله صرفاً كلياً؛ فتصفو تُربته، ويستنير قلبه بالذكر المتوالى ويرى فى خلوته وتأملاته الدنيا على حقيقتها «متاع الغرور» ويقترب من الله فى خلوته بسجوده وبصفاء سريرته .

ولقد كتب السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » فصولاً جميلة عن الخلوة وشروطها وأذكارها، وكتب غيره عنها .

والناس - عادة - يستجمُّون جسمانياً كل عام ، وإن استجمامهم الروحى - ولو أسبوعاً واحداً - أوجب لهم وأفضل أثراً لمجتمعهم ، وأهدى إلى الرشد .

ويقول ذو النون عن الخلوة :

« لم أرَ شيئًا أبعثَ لطلب الإخلاص من الوحدة ؛ لأنه إذا خَلاَ لم يَرَ غير الله، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله. ومن أحب الخلوة فقد تعلَّق بعمود الإخلاص ، واستمسكَ بركن كبير من أركان الصدق، ومن تَزَيَّنَ بعمله فحسناته سيئات » .

ولكن ذا النون حينما تمكَّن نور الإخلاص من نفسه قال :

« ليس من احتجبَ عن الخَلْق بالخلوة كَمَنِ احتجبَ عنهم بالله ».

سر الملكوت :

فى هذه الكلمة يبين ذو النون سر الملكوت ، وهى كلمة من النفاسة بحيث رأينا أن نختم بها فصل التصوف ؛ حتى تكون خاتمة لهذا الفصل . .

يقول أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم :

قلت لذى النون :

- كم الأبواب إلى الفطنة ؟

قال :

« أربعة أبواب: أولها الخَوفُ ، ثم الرَّجاءُ ، ثم المحبَّة ، ثم الشَّوق..

ولها أربعة مفاتيح:

فالفَرْض مفتاح باب الخوف ، والنافلة مفتاح باب الرجاء ، وحبُّ العبادة مفتاح باب المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق ، وهى درجة الولاية.

فإذا هممتَ بالارتقاء فى هذه الدرجة ، فتناولْ مفتاح باب الخوف ، فإذا فتحتَه اتصلتَ إلى باب الفطنة مفتوحًا لا غلقَ عليه ، فإذا دخلتَه فمَا أظنكَ تطيق ما ترى فيه ، حينئذٍ يجوز شرفُك الأشرافَ ، ويعلو مُلْكُكَ مُلْكَ الملوك.

واعلمْ - يا أخى - أنه ليس بالخوف يُنال الفرض ، ولكن بالفرض يُنال الخوف، ولا بالرجاء تُنال النافلة، ولكن بالنافلة يُنال الرجاء، كما أنه ليس بالأبواب تُنال المفاتيح ، ولكن بالمفاتيح تُنال الأبواب .

واعلمْ أنه مَنْ تَكَامَلَ فيه الفَرْض فقد تَكَامَلَ فيه الخوف ، ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء، ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله، ومن شَغَلَ قلبه ولسانه بالذكر ؛ قَذَفَ الله فى قلبه نور الاشتياق إليه، وهذا سرُّ الملكوت فاعْلَمْهُ واحْفَظْهُ حتى يكون الله - عز وجل - هو الذى يناوله من يشاء من عباده ».

* * *

صاحب الكرامات

لقد كتبنا عن الكرامات كثيراً فى بعض كتبنا، فلا نعيد ما سبق أن كتبنا، ويكفينا هنا أن نقول:

إن القرآن الكريم ذكر الكثير من الكرامات، والكثير من المعجزات فكل مسلم - إذن - يؤمن بها .. إن الإيمان بها جزء من الإيمان الإسلامى ..

وبهذا ينحصر الخلاف عند المسلمين فى صحة الرواية وفى دقة النقل، فمن اعتقد بصحة الرواية ودقة النقل سَلَّم بالكرامة، ومن شك فى الصحة أنكر، وكلاهما يؤمن مع القرآن بأن الله قد أجرى الكثير من المعجزات على أيدى الأنبياء، والكثير من الكرامات على أيدى الصالحين.

وقد رُويت عن ذى النون كرامات كثيرة، وروى الشيخ الأكبر بعضها .. ومما رواه الشيخ الأكبر ما يذكره صاحب «الكواكب الدرية» بقوله:

«ومن مقاماته الفائقة، وأحواله المدهشة الخارقة، أن روحه الشريفة كانت تدبر أجساماً متعددة، فقد قال العارف ابن عربى: الروح الواحد يدبر أجساماً متعددة، إذا كان له الاقتدار على ذلك، ويكون ذلك فى الدنيا للولىّ بخرق العادة، وفى الآخرة نشأة الإنسان تعطى ذلك.

قال: وكان ذو النون المصرى، وقضيب البان، ممن له هذه القوة، كما يدبر الروح الواحد سائر أعضاء البدن؛ من يد ورجل وسمع وبصر، وكما تؤاخذ النفس بأفعال الجوارح على ما وقع منها، فكذا

هذه الأجسام التى تدبرها روح واحدة، أى شىء وقع منها يسأل عنه ذلك الروح الواحد، وإن كان عين ما يقع من هذا الجسم عين ما يقع مع الآخر » . . اهـ .

وروى ابن باكويه فى كتاب « أخبار العارفين » عن أبى العباس قال :

كنت ماراً بمصر، فرأيت حلقة، فإذا رجل تعلق بآخر، والدم يسيل على ثيابه، فوقف عليهم ذو النون وقال : **ما لك ؟**..

قال : هذا كسر ضرسى ، فأخذ ضرسه ووضعه فى مكانه وقرأ عليه ؛ فإذا بالضرس كما كان ، فلما تفرق الناس عنه تعلَّقت به، وقلت :

« أرى معك اسم الله الأعظم » . فقال : « **تَنَحَّ عنِّى** » . فقلت : « لا أفارقك أو تعلِّمنيه » . . فأقبل علىَّ وقال :

« **يا هذا ، إذا رَقَّ قلبك فادعُ بما شئتَ . فذَاكَ اسمُ الله الأعظم** » .

وعن أبى عبد الله بن الجلاء ، قال :

« كنت مع ذى النون بمكة، فجعنا أياماً، فقام يوماً ذو النون قبل الظهر، فصعد الجبل للطهارة، وأنا معه أحمل الماء، فرأيت قشور الموز فى الوادى ، فأخذت قطعتين أو ثلاثاً، فقلت : إذا تباعد الشيخ للطهارة آكل هذا، فلما صعدنا الجبل وتباعدنا عن الناس قال : **ارْمِ قشورَ الموز**. فرميت، فمضى وفرغ من وضوئه، ورجعنا إلى المسجد وصلينا وجلسنا، وإذا شاب يجىء ومعه طبق، فقال له الشيخ : اتركه . ثم قال لى : **كُلْهُ** . قلت : وحدى ؟! فقال : **أنت طلبته، وأنا لم أطلبه**. فأكلت وحدى وأنا خَجِلٌ .

* * *

السـائـح

ذكر الله تعالى من أوصاف المؤمنين أنهم « **السائحون** » . . فمن هم السائحون ؟

أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة ، أنهم : طلبة العلم ؛ لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه .

وروى أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال :

- يا رسول الله ، ائذن لى فى السياحة ؟

فقال النبى ﷺ :

« **سياحة أمَّتى الجهاد فى سبيل الله** » .

إن كلمة «السياحة» كلمة شريفة ، وصف الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين ، وهى تدل على معنيين :

أحدهما: السفر من أجل طلب العلم . .

وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أشاد بالعلم والعلماء فى كتابه العزيز ، ورسول الله ﷺ تحدث عن العلم والعلماء ، وبيَّن أن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

ولقد سافر علماء الإسلام من أجل طلب العلم أسفاراً ، هى من الكثرة بحيث لا يستطيع عادٌّ أن يعدها .

وأما **المعنى الثانى** « للسياحة» : فإنه السفر تَعبُّداً واعتباراً ، وعظة واستجماماً روحياً ، وتفرغًا لله سبحانه أسبوعاً أو أسبوعين ، إنه

سفرٌ روحيٌّ في مقابلة السفر للاستجمام الجسمانيّ .

والناس إذا كان أكثرهم يسافرون للاستجمام الجسماني فإن بعض المؤمنين يسافرون استجماماً روحياً إلى الحج ، أو إلى زيارة ولي من أولياء الله ، أو إلى الخلوة مع الله فترة من الزمن تطول أو تقصر ، بحسب الفراغ المتاح والظروف المناسبة .

ومما ذكره صاحب كتاب « محاسن التأويل » عند شرح هذه الكلمة الشريفة :

« ونقل الرازي عن أبي مسلم أن السائحين السائرون في الأرض ، وهو مأخوذ من (السّيح) سيح الماء الجاري ، والمراد به : من خرج مجاهداً مهاجراً .

وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين ، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات .

وروى مثله ابن أبي حاتم ، عن عبد الرحمن ، أنه قال : هم المهاجرون .

وعن عكرمة أنهم : المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير :

جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ائذن لي في السياحة؟

فقال النبي ﷺ :

« **سياحة أمَّتي الجهاد في سبيل الله** » .

أقول : لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روى عن السلف فيها .

لأن الجهاد في سبيل الله ، كما يُطلَق على قتال المشركين يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه في الدين أو للاعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر .

هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات .

أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ، أعني : الضرب في الأرض خاصة ، الذى عبر عنه عكرمة بالمتنقلين لطلب العلم ، لكان بمفرده كافياً في المعنى مشيراً إلى وصف عظيم ، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه ، وهو الحق في تأويل الآية » . . إهـ .

ولقد كان ذو النون المصرى من أكثر الناس سياحة ، وكان في سياحاته كثير الملاحظات لما يراه من مشاهد العظة والاعتبار ، وكان يقص بعض ما جرى له في سياحاته من أمور تفيد الناس في صلتهم بربهم ، وتفيدهم في تهذيب أخلاقهم وزيادة الشفافية في نفوسهم .

أما هذه السياحات - إذا نظرنا إليه هو - فإنها كانت من هوى نفسه .

لقد خلقه الله طلعةً محباً للعلم ، عاملاً على كشف المجهول ، مرتاداً لكل مجالات المعرفة ، ومن هذه المجالات مجال المعرفة للأماكن والبقاع التى لم يرها ، إنه مجال معرفة للعظة والاعتبار والتفكر ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[١].

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٢].

ويقول أيضاً :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[٣].

ويقول تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٤].

من أجل كل ذلك ساح ذو النون، ساح طالباً للعلم، وساح متعبداً، وساح مفكراً.

ونذكر الآن بعض سياحاته :

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) سورة النمل : ٦٩ .

(٣) سورة غافر : ٢١ .

(٤) سورة فصلت : ٥٣ .

يا أمل المؤمِّلين :

عن محمد بن أحمد الشمشاطى قال : سمعت ذا النون المصرى يقول :

بينما أنا سائر على شاطئ نيل مصر . . إذا أنا بجارية تدعو وهى تقول فى دعائها :

« يا من هو عند ألسُن الناطقين، يا من هو عند قلوب الذاكرين،يا من هو عند شكر الحامدين ، يا من هو على نفوس الجبَّارين والمتكبرين.. قد علمت ما كان منى يا أمل المؤمِّلين ».

قال : ثم صرختْ صرخة وخرَّتْ مغشيًا عليها . .

إذا اعتللتَ فلا تجعلْ علَّتك إلى مخلوق مثلك :

قال : وسمعت ذا النون يقول :

دخلتُ إلى شواطىء نيل مصر ، فجاءنى الليل ، فقمتُ بين زروعها ، فإذا أنا بامرأة سوداء قد أقبلتْ إلى سنبلة ففركتها ، ثم امتنعتْ عليها فتركتها وبكتْ وهى تقول :

« يا من بَرأه حَبّاً يابساً فى أرضه ، ولم يَكُ شيئاً ، أنت الذى صيَّرته حشيشًا ، ثم أنبتَّه عوداً قائماً بتكوينك ، وجعلتَ فيه حَبّاً متراكباً ، ودوَّرته فكوَّنته وأنت على كل شىء قدير » . .

وقالت : **« عجبت لمن هذه مشيئته كيف لا يُطاع ؟! وعجبتُ لمن هذا صُنْعه كيف يُشْتكى ؟! » . .**

فدنوت منها فقلت : من يشكو أمل المؤمِّلين ؟ . .

فقالت لى :

« أنت يا ذا النون ، إذا اعتللتَ فلا تجعلْ علَّتك إلى مخلوق مثلك .. واطلب دواءك ممن ابتلاك .. وعليك السلام .. لا حاجة لى فى مناظرة الباطلين » . .

ثم أنشأت تقول :

وكيفَ تنامُ العينُ وَهْىَ قريرةٌ ولم تَدْرِ فى أىِّ المحلَّينِ تنزلُ ؟

إن المحب هو الصبور :

وعن أبى عثمان سعيد بن الحكم قال : سمعت أبا الفيض ذا النون ابن إبراهيم يقول :

بينما أنا أسير ذات ليلة ظلماء فى جبال بيت المقدس ، إذ سمعت صوتًا حزيناً وبكاءً جهيراً ، وهو يقول :

« يا وحشتاه بعد أنسنا ، يا غربتاه عن وطننا ، وا فقراه بعد غنانا ، وا ذُلَّاه بعد عِزِّنا » . .

فتبعتُ الصوتَ حتى قربت منه ، فلم أزل أبكى لبكائه حتى إذا أصبحنا نظرت إليه فإذا رجل ناحل كالشَّنِّ المحترق ، فقلت : يرحمك الله ، لِمَ تقول مثل هذا الكلام ؟

فقال :

« دَعْنى فقد كان لى قلب فقدته » . .

ثم أنشأ يقول :

قَدْ كانَ لى قلبٌ أعيشُ بهِ | بينَ الوَرَى فرَمَاهُ الحبُّ فاحْتَرَقا

فقلت له :

لِمَ تشتكى ألمَ البَلاءِ | وأنتَ تنتحلُ المَحَبَّهْ
إنَّ المحبَّ هو الصَّبُورُ | على البَلاءِ لمن أحَبَّهْ
حُبُّ الإلهِ هو السُّرورُ | مع الشِّفاءِ لكل كُرْبَهْ

من يَرْجُ النجاة يجتهدْ :

وعن إسرافيل قال : سمعت ذا النون يقول :

سمعت بعض المتعبدين بساحل بحر الشام يقول :

« إن لله عبادًا عرفوه بيقين من معرفته ، فشمَّروا قصدًا إليه ، احتملوا فيه المصائب لما يرجون عنده من الرغائب ، صحبوا الدنيا بالأشجان، وتنعَّموا فيها بطول الأحزان، فما نظروا إليها بعين راغب، ولا تزوَّدوا منها إلا كزاد الراكب ، خافوا البيات فأسرعوا ، ورجوا النجاة فأزمعوا ، بذكره لهجت ألسنتهم فى رضا سَيِّدهم ، نصبوا الآخرة نُصب أعينهم ، وأصغوا إليها بآذان قلوبهم . فلو رأيتهم رأيت قوماً ذبلاً شفاههم ، خُمصاً بطونهم، حزينة قلوبهم، ناحلة أجسامهم ، باكية أعينهم ، لم يصحبوا العلل والتسويف ، وقنعوا من الدنيا بقُوتٍ طفيف، لبسوا من اللباس أطماراً بالية، وسكنوا من البلاد قفارًا خالية ، هربوا من الأوطان، واستبدلوا الوحدة من الإخوان ، فلو رأيتهم لرأيت قوماً ذبحهم الليل بسكاكين السهر ، وفصل الأعضاء منهم بخناجر

التعب ، خُـمْصٌ لطول السُّرَى ، شُـعْثٌ لفقد الكَرَى ، قـد وصلوا الكَلاَلَ بالكَلاَل ، وتأهبوا للنقلة والارتحال » .

بين جبال الشام:

يا من استأنس به المجتهدون فوجدوه سريعًا مجيبًا

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى ، قال : سمعت ذا النون يقول : بينما أنا سائر بين جبال الشام ، إذا أنا بشيخ على قطعة من الأرض ، قد تساقط حاجباه على عينيه كبَرًا ، فتقدمت إليه ، فسلمت عليه فردَّ علىَّ السلام ، ثم أنشأ وهو يقولُ بصوت عليل :

« يا من دعاه المذنبون فوجدوه قـريباً ، ويا من قصد إليه الزاهدون فوجدوه حبيباً ، ويا من استـأنس به المجتهدون فوجدوه سريعاً مجيباً » . .

ثم أنشأ يقول :

وَلَهُ خَصَائصُ مُصْطَفينَ لحبِّه ... اخْتَارَهم فى سَالِفِ الأزمانِ

اخْتَـارَهم مِنْ قَبْلِ فِطْرةِ خَـلْقه ... فَـهُمُ ودائعُ حِكْـمَـةٍ وبَيَـانِ

ثم صرخ صرخة فإذا هو ميت .

فى بلاد العرب :

لا تترك الزاد ليوم معادك

وعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول :

بينما أنا سائر فى بلاد العرب ، إذا أنا برجل على عريش من البلُّوط ، وعنده عين ماء تجرى ، فأقمت عليه يّوماً وليلة أريد أن أسمع كلامه ، فأشرف علىَّ بوجهه ، فسمعته يقول :

« شهد قلبى لك بالنوازل، وكيف لا يشهد قلبى بذلك وكل أمورهم إليك، فحسب من اغترَّ بك أن يألف قلبه غيرك، هيهات هيهات، لقد خاب لديك المقصِّرون، سَيِّدى، ما أحلى ذكرك ، أليس قَصَدَك مؤمِّلوك فنالوا ما أمَّلوا، وجُدْتَ لهم منك بالزيادة على ما طلبوا ؟ ».

فقلت له : يا حبيبى ، إنى مقيم عليك منذ يوم وليلة أريد أن أسمع من كلامك .

فقال لى :

« قد رأيتكَ يا بَطَّال حين أقبلتَ ، ولكن ما ذهبَ رَوْعُكَ من قلبى إلى الآن » . .

فقلت له : ولمَ ذلك . وما الذى أفزعك منى ؟

فقال :

« بطالتُكَ فى يوم عملكَ ، وفراغُكَ فى يوم شُغلكَ ، وتَرْكُكَ الزاد ليوم معادك، ومقامُكَ على المظنون » .

فقلت : إن الله تعالى كريم ، ما ظن به أحدٌ شيئاً إلا أعطاه .

فقال :

« إنه لكذلك إذا وافقه العمل الصالح والتوفيق » .

فى بلدة شاهرت :

وعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول :

وُصفَ لي رجل بشاهرت، فقصدته، فأقمت على بابه أربعين يوماً، فلما كان بعد ذلك رأيته، فلما رآني هرب مني، فقلت له: سألتك بمعبودك إلا وقفت عليَّ وقفة، فوقف، فقلت: سألتك بالله بم عرفت الله، وبأي شيء تعرَّف إليك الله حتى عرفته ؟

فقال لي:

« نعم، رأيتُ لي حبيباً إذا قربتُ منه قرَّبني وأدناني، وإذا بعدتُ ناداني، وإذا قمتُ بالفترة رغَّبني ومنَّاني، وإذا عملتُ بالطاعة زادني وأعطاني، وإذا عملتُ بالمعصية صبرَ عليَّ وتأنَّاني، فهل رأيت حبيبًا مثل هذا ؟.. انصرفْ عني ولا تشغلني ». ثم ولَّى.

في تيه بني إسرائيل:

وعن سعيد بن عثمان، قال:

« كنت مع ذي النون في تيه بني إسرائيل، فبينما نحن نسير إذا بشخص قد أقبل، فقلت: يا أستاذ، شخص.

فقال لي:

انظر، فإنه لا يضع قدمه في هذا المكان إلا صدِّيق. فنظرت فإذا امرأة، فقلت: إنها امرأة، فقال: صدِّيقة ورب الكعبة، فابتدر إليها، وسلَّم عليها، فردت السلام ثم قالت:

ما للرجل ومخاطبة النساء ؟!..

فقال لها: إني أخوك ذو النون، ولست من أهل التُّهم.

فقالت:

مرحباً، حيَّاك الله بالسلام.

فقال لها : ما حَمَلَك على الدخول إلى هذا الموضع ؟

فقالت : آية في كتاب الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[1] . .

فكلما دخلت إلى موضع يُعصَى فيه لم يهنني القرار فيه بقلب قد أَبْهَلَتْهُ شِدَّةُ محبته، وهام بالشوق إلى رؤيته.

فقال لها : صِفِى لى .

فقالت : يا سبحان الله ، أنت عارف تتكلم بلسان المعرفة ، تسألني؟!

فقال : يحق للسائل الجواب .

فقالت : نعم ، المحبة عندى لها أول وآخر ، فأولها : لهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم ، والتشوق اللازم ، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخَلَوات عن كثير من أعمال الطاعات » . .

ثم أخذت في الزفير والشهيق، وأنشأت تقول :

أُحِبُّكَ حُبَّيِن :حُبَّ الهَوَى	وحُبًا لأنكَ أهلٌ لذَاكَا
فَأمَّا الذى هو حُبُّ الهَوَى	فَذِكْرٌ شُغِلتُ به عَمَّن سِوَاكَا
وأمَّا الَّذى أنتَ أهلٌ لَهُ	فَكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حَتَّى أراكَا
فَمَا الحمدُ فِى ذا ولا ذَاكَ لِى	ولكنْ لَكَ الحَمْدُ فِى ذَا وذَاكَا

ثم شهقتْ فإذا هى قد فارقت الدنيا » . .

---

(١) سورة النساء : ٩٧ .

على شاطئ نيل مصر:

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى قال: سمعت ذا النون يقول:

« بينما أنا سائر على شاطئ نيل مصر إذا أنا بجارية عليها دباء شعث الكلال[1]، وإذا القلب منها متعلق بحب الجبَّار، وهى منقطعة فى نيل مصر، وهو يضطرب بأمواجه، فبينما هى كذلك إذ نظرت إلى حوت ينساب بين الوجبتين، فرنت بطرفها إلى السماء وبكت وأنشأت تقول:

« لك تفرَّد المتفرِّدون فى الخَلَوات، ولعظيم رجاء ما عندك سَبَّحَ الحيتان فى البحور الزاخرات، ولجلال هيبتك تصافقت الأمواج فى البحور المستفحلات، ولمؤانستك استأنستْ بك الوحوش فى الفَلَوات، ولجُودكَ وكرمك قصدتُ إليك يا صاحبَ البرِّ والمُسَامَحَات » . . ثم ولّت عنى وهى تقول:

يا مُؤْنِسَ الأبرارِ فى خَلَواتهمْ ... يا خيرَ مَنْ حَطَّتْ به النزَّالُ

مَنْ نالَ حبكَ لا ينالُ تَفجُّعاً ... القلبُ يَعلمُ أنَّ ذاكَ مُحَالُ

ثم غابت عنى فلم أرها، فانصرفت وأنا حزين القلب ضعيف الرأى».

فى مقبرة البصرة:

وحدَّث يوسف بن الحسين: قال بعض الصوفية:

---

(١) أى: ثياب بالية.

سمعت ذا النون يقول :

رأيت سعدون في مقبرة البصرة، في يوم حار، وهو يناجي ربه، ويقول بصوت عال :

« **أحدٌ، أحد** » . . فسلَّمت عليه ، فردَّ عليَّ السلام :

فقلت : بحقٍّ من ناجيته إلا وقفت . .

فوقف ثم قال لي :

« **قُلْ وأوجِزْ** » . .

قلت : توصيني بوصية أحفظها منك ، وتدعو لي بدعوة .

فأنشأ يقول :

يا طَالبَ العِلْمِ هَهُنَا وهُنَا ... ومَعْدِنُ العلمِ بينَ جَنْبَيْكَا

إنْ كُنْتَ تَبغي الجِنانَ تَسكنُها ... فأذرفِ الدمعَ فوقَ خَدَّيْكَا

وقُمْ إذا قَامَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ ... تَدْعُوه كَي مَا يقول لَبَّيْكَا

ثم مضى وقال :

« **يا غِيَاثَ المستغيثين أغِثْنِي** » . .

فقلت له : ارفقْ بنفسك ، فلعله يلحظك فيغفر لك ، فصرف يده من يدي ، وعَدَا[1] وهو يقول :

أنِسْتُ بِهِ فَلا أبْغِي سِوَاهُ ... مَخَافَةَ أنْ أضِلَّ فَلاَ أرَاهُ

فَحَسْبُكَ حَسْرَةً وَضَنًا وَسُقْماً ... بِطَرْدِكَ مِنْ مَجَالِسِ أوْلِيَاهُ.

---

(١) أسرع وجرى .

سياحة فى طلب المباح :

وحدَّث يوسف بن الحسين عن الفتح بن شخرف ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

خرجت فى طلب المباح ، فإذا أنا بصوت ، فعدلت إليه ، فإذا أنا برجل قد غاص فى بحر الولَه ، وخرج على ساحل الكَمَه[1] ، يقول فى دعائه :

« أنت تعلم أن الإصرار مع الاستغفار لؤم ، وتركى الاستغفار مع معرفتى بسعة عفوك عجز ، يا إلهى أنت خصصتَ خصائصك بخالص الإخلاص ، وأنت الذى تضنُّ بضنائنك عن شوائب الانتقاص ، وأنت الذى سلَّمت قلوب العارفين عن اعتراض الوسواس ، وأنت الذى آنست الآنسين من أوليائك ؛ فأعطيتهم كفاية رعاية ولاية المتوكِّلين عليك ، تكلؤهم فى مضاجعهم ، وتطَّلع على سرائرهم، وسِرِّى عندك مكشوف، وأنا إليك ملهوف ، وأنت بالإحسان معروف » .

ثم سكت فلم أسمع له صوتاً .

فى بيت الله الحرام :

وحدَّث محمد بن يزيد قال : سمعت ذا النون يقول :

خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام . . فبينما أنا بالطواف إذا بشخص متعلّق بأستار الكعبة ، وإذا هو يبكى ويقول فى بكائه :

---

(١) الذهول وتغيُّر اللون .

« كتـمتُ بلائى عن غيرك ، وبُحْتُ بـسرِّى إليك ، واشتـغلتُ بك عمَّن سواك...عجبتُ لمن عرفكَ كـيف يسلو عنك ، ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك ؟! » . .

ثم أنشأ يقول :

ذوَّقْتَنِى طِيْبَ الوِصَالِ فَزِدْتَنِي ... شَوْقاً إليكَ مُخَامِرَ الحَسَرَاتِ

ثم أقبل على نفسه فقال :

« أمْهلكَ فمـا ارعويتَ ، وسَتَرَ عليكَ فـما استحـييتَ ، وسلبكَ حلاوة المناجاة فما باليتَ » .

قال : فلم أتمالك أن أتيت الكعبة مستخفياً ، فلما أحس تَجَلَّل بخمار كان عليه ثم قال : **« يا ذا النون، غُضَّ بصرك من مواقع النظر ؛ فإنى حرام »** . . فعلمت أنها امرأة .

ثم أنشأت تقول :

لَمْ أذُقْ طَعْمَ وَصْلِكَ حَتَّى ... زَالَ عَنِّى مَحَبَّتِى لِلأنَامِ

ثم قالت :

« أوْجَعْتَنِى، أمَا علمتَ أنه لا يُبْلَغُ إليه إلا بِتَرْكِ مَنْ دُوْنَهُ » . .

فى بعض سياحاته :

وقال ذو النون : رأيت فى سياحتى شيخاً، فقلت :

ـ كيف الطريق إلى الله ؟

قال :

« دَعْ طريق الخلاف والاختلاف ».

قلت : أليس اختلاف العلماء رحمة ؟

قال :

« إلا فى تجريد التوحيد ».

قلت : ما تجريده ؟

قال :

« فقدان رؤية ما سواه لوجدانه » .

قلت : أوَ ليس من عرف الله طال هَمُّه ؟

قال :

«بَلْ مَنْ عَرَفَهُ زَالَ هَمُّه » .

قلت : هل يكون العارف مسروراً ؟

قال :

« وهل يكون محزوناً ؟!» .

قلت : أليس من عرف الله صار مستوحشاً ؟

قال :

« معاذَ الله ، بل يكون مهاجراً متجدداً » .

قلت : وهل يأسف العارف على شىء غير الله ؟

قال :

« وهل يعرفُ اللهَ فيأسف عليه » .

قلت : وهل يشتاق إلى ربه ؟

قال :

« وهل يغيب عنه طرفةَ عينٍ حتى يشتاقه ؟!» .

قلت : ما اسم الله الأعظم ؟

قال :

« أن تقول « الله » وأنت تَهَابُه » .

قلت : كثيراً ما أقوله ولا تداخلني هيبة .

قال :

« لأنك تقول « الله » من حيث أنت، لا من حيث هو» .

قلت : عِظْنى .

قال :

« حَسْبُكَ من الموعظة عِلْمُكَ بأنه يراك » .

قلت : فما تأمرنى ؟

قال :

« لاطِّلاعه عليك فى كل أحوالك ؛ لا تَنْسَهُ».

وعن إسرافيل قال : سمعت ذا النون يقول :

نظرت إلى رجل فى بيت المقدس ، قد استغرقه الوَلَهُ، فقلت له : ما الذى أثار منك ما أرى ؟

قال :

« ذهب الزُّهَّاد والعُبَّاد بصَفْو الإخلاص ، وبقيتُ فى كَدَرِ الانتقاص ، فهل من دليل مرشد أو حكيم موقظ ؟ » .

في نواحي الشام :

ومن وقائعه في سياحاته ما حكى ، قال :

« بينما أنا أسير في نواحي الشام إذ وقعت على روضة خضراء ، وإذا بشاب يصلى تحت شجرة، فسلمت ، فأوجز في صلاته ولم يرد، ثم كتب بإصبعه في الأرض :

مُنِعَ اللسَانُ مِنَ الكَلامِ لأنَّـهُ سَبَبُ الفَسَادِ وَجَالِبُ الآفَاتِ

فَإذا نَطَقْتَ فَـكُنْ لِرَبِّكَ ذَاكِراً وَإذَا سَـكَتَّ فَـعُدَّ مَـوْتَكَ آتِ

قال : فبكيت وكتبت بإصبعي في الأرض :

وَمَـا مِنْ كَاتِـبٍ إلا سَيَبْلَى وَيُبْقِي الدَّهْرُ مَا كَتَـبَتْ يَدَاهُ

فَلاَ تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ يَسُرُّكَ فِي القِيَامَـةِ أنْ تَـرَاهُ

فصاح الشاب فمات، فقمت لأجهزه وأدفنه ، وإذا بقائل : خَلِّ عنه فإن الله وعده ألا يتولاه إلا ملائكته، فالتفتُ فلم أره » .

في بعض سياحاته :

وقال : « بينما أنا أسير في بعض سياحاتي إذا أنا بصوت حزين كئيب موجع القلب، أسمع الصوت ولا أرى الشخص وهو يقول :

« **سبحان مُفْنِي الدهور، سبحان مُخَرِّب الدور، سبحان باعث من في القبور، سبحان مُميت القلوب** » . .

فاتبعت الصوت فإذا بإنسان يقول :

« سبحان من لا يَسَعُ الخَلْقَ إلا سَتْرُه ، سبحانك ما ألطفكَ بمن خالفك ، وأوفاك بعهدك ، سبحانك ما أحلمك على من عصاك » . .

ثم قال :

« سَيِّدى ، بحِلْمكَ نطقتُ، وبفضلكَ تكلمتُ ، فيا إلهَ من مضى قبلى ومن يكون بعدى ، بالصالحِين ألحِقْنى ، ولأعمالهم وَفِّقْنى» . .

ثم قال :

« إن الزُّهَّاد والعُبَّاد نزل بهم الزمان فأبلاهم ، وحَلَّ بهم البلاء فأفناهم، فهل أنتظر إلا مثل ما أصابهم ؟» . . فانصرفت وتركته باكياً» .

على جبل المقطم :

وقال : «وُصِفَ لى رجل بجبل المقطم فقصدته ، فمكثت عنده أربعين يوماً ثم سَألته ، فقلت : فيم النجاة ؟

قال :

فى التقوى والمراقبة.

قلت : زدنى .

قال :

فِرَّ من الخَلْق ولا تأنسْ بهم .

قلت : زدنى .

قال :

إن لله عباداً أطاعوه ؛ فَسَقَاهُم كأساً من محبته ، فهم فى شربهم عِطَاشٌ ، وفى عطشهم أروياء . . ثم تركنى » .

في التيـــه :

وقال: صحبت زنجياً في التيه، فكان إذا ذكر الله ابيضّ، فورد عليَّ أمر عظيم، فسألته، فأنشد:

ذَكَرْنَـا وَمَا كُنَّا نَسِينـا فَنَـذْكُرُ وَلَكِنْ نَسِيمُ القُرْبِ يَبْدُو فَيَظْهَرُ

ثم قال أيضاً:

أنـتَ فـى غَـفْلَـةٍ وقَلْبُـكَ سَـاهِي نَفِدَ العُـمْـرُ والذنوبُ كَـمـا هِـى

جَـمَّةٌ أُحْـصِـيَتْ عَليكَ جَمِيعـاً فِـى كِـتَـابٍ .. وأنتَ عَنْ ذَاكَ لاهِ

لَـمْ تُبَـادِرْ بِتَـوْبَةٍ مِنْـكَ حَـتَّى صِرْتَ شَـيْخـاً فَحَبْـلُكَ اليَوْمَ وَاهِ

فَاجْـتَهِدْ فِي فِكَاكِ نَفْسِكَ واحْذَرْ يَـوْمَ تَبْـدُو السِّمَاتُ فَوْقَ الجِبَاهِ

قال ذو النون:

« فمَا طَرَقَ سمعي مثل حكمة ذلك الزنجيّ، فعلمت أن لله تعالى عباداً تعلو قلوبهم بالأذكار كما تعلو الأطيار في الأوكار، لو فتشت منهم القلوب لما وجدت فيها غير حب المحبوب ».

في جبل نيسان :

وقال: «اجتمعت في جبل نيسان بامرأة متعبدة كالشَّنِّ البالي كأنها تخبر عن أهل المقابر، فسألتها: أين وطنك ؟

قالت:

ما لي وطن إلا النار، أو يعفو العزيز الغفار.

قلت : هل من وصية ؟

قالت :

شَمِّرْ عن ساق الجد ، وَدَعْ ما يتعلق به البَطَّالون من الرجاء الكاذب الذى لا تحقيق لـهم فيه ، ولا يدرون كيف العواقب ، فوالله لا يَرِدُ غدًا المنازل إلا المضمّرون[1] » .

فى جبال بيت المقدس :

وقال : بينما أنا أسير فى جبال بيت المقدس ، إذ سمعت قائلاً يقول :

« ذهبتِ الآلام عن أبدان الخُدَّام ، ولهيتْ بالطاعة عن الشراب والطعام ، وألفتْ أبدانهم طولَ القيام بين يَدَى الملك العلاَّم » .

فتبعت الصوت فإذا شاب قد علاه اصفرارٌ ، فلما رآنى توارى منى بالشجر .

فقلت له : ليس الجفاء من أخلاقهم ، فأوصنى .

فخرَّ ساجداً وجعل يقول :

« هذا مقام مَنْ لاذَ بك ، واستجار بمعرفتك ، وألِفَ محبتك ، فيا إلهَ القلوب وما تحويه من جلال عظمتك : احجبنى عن القاطعين لى عنك » . . ثم غاب فلم أره .

---

(١) الذين استعدوا من قبل .

في جبل لبنان :

وقال : « رأيت في جبل لبنان رجلاً أغْبَرَ نحيفاً يصلي ، فسلَّمتُ فَرَدَّ ، فما زال راكعاً ساجداً حتى صلى العصر ، ثم استند إلى حجر ولم يكلمني .

فقلت : ادْعُ لي .

قال :

آنسك الله بقربه.

فقلت : زدني .

قال :

مَنْ آنسه الله بقربه أعطاه أربعاً : عِزّاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغِنًى بغير مال ، وأُنساً بغير جماعة .

ثم شهق فلم يفق إلا بعد ثلاث ساعات .

فقال :

انصرفْ عني بسلام.

قلت : أوصني .

قال :

أحببْ مولاك ولا تُرِدْ بحبه بدلاً ».

على شاطئ غدير :

وقال ابن باكويه : حدثنا بكر بن أحمد الجيلي ، قال : سمعت يوسف بن الحسين الرازي يقول :

« كنت مع ذى النون المصرى ، على شاطئ غدير . . فنظرنا فإذا بضفدع خرج من الغدير فركبه عقرب ، وجعل الضفدع يسبح حتى عبر ، فقال ذو النون : **إن لهذا العقرب لشأناً فامضِ بنا نقفو على أثره.** فإذا رجل نائم سكران ، وإذا حية قد جاءت ، فصعدت إلى صدره وهى تطلب أذنه ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها ، فانقلبت فانفسحت ، ورجعت العقرب ونزلت إلى الغدير وجاءت الضفدع بها إلى الجانب الثانى ، فَحَرَّكَ ذو النون الرجل النائم ففتح عينيه فقال : **يا فتى، انظرْ مِمَّ نجَّاك الله ؟** . . هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التى أرادتك . .

ثم أنشأ ذو النون يقول :

يَا غَافِلاً والجليلُ يحفظهُ مِنْ كلِّ سوءٍ يدبُّ فى الظُّلَمِ
كَيفَ تنامُ العُيونُ عن مَلِكٍ يَأتِيكَ مِنْهُ فَوائِدُ النِّعَمِ

فرفع الشاب رأسه ونهض وقال : إلهى ، هذا فعلك بمن عصاك ، فكيف فعلك بمن يطيعك ؟ . . ثم ساح » .

حديث مع بعض متعبدى العرب :

روى يوسف بن الحسين قال : قال ذو النون :

«دخلت على بعض متعبِّدى العرب فقلت له : كيف أصبحت؟ . .

قال :

أصبحت فى بحـابح نعمه أجول ، وبلسان فضله وإحـسانه أقول : نعمـاؤه علىَّ باطنة وظاهرة ، وغصـون رياض مواهبـه علىَّ مشـرقة زاهرة » .

سبحانه ما أمهله بالأنام :

قال : وقال ذو النون :

« دخلت على متعبدة ، فقلت لها : كيف أصبحت ؟

فقالت :

أصبحت من الدنيا على فناء ومبادرة فى أخذ الجهاز ، متأهبة لِهَوْل يوم الجَواز ، له علىَّ نِعَمٌ أعترف بتـقصيرى عن شكرها ، وأتنصل عن ضعفى عن إحـصائها وذكرها ، فـقد غفلت القلوب عنه وهو مُنشـيها ، وأدبرت النفوس عنه وهو يناديها ، فسـبحانه .. ما أمهله بالأنام .. مع تواتر الأيادى والإنعام » .

أطِعِ اللّه إذا خَلَوْتَ يُجِبْكَ إذا دعوتَ :

وقال : « رأيت فى تيه بنى إسرائيل سوداء قد استلبهـا الوَلَهُ من حب الرحمن شاخصة ببصرها نحو السماء ، فقلت : السلام عليك يا أختاه .

قالت :

وعليك السلام يا ذا النون.

قلت : من أين عرفتنى ؟

قالت :

إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام، ثم أدارها حول العرش، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، فعرفتْ روحى روحك فى ذلك الجَوَلان.

قلت : أراكِ حكيمة ، فعلِّمينى مما علَّمكِ الله .

قالت :

يا أبا الفيض ، ضع على جوارحك ميزان القسط : حتى يذوب كل ما كان لغير الله، ويبقى القلب نقياً لا شىء فيه غيره، فحينئذ يقيمك على الباب ، ويولِّيك ولاية جديدة ، ويأمر الخزَّان لك بالطاعة .

قلت : زيدينى .

قالت :

خُذْ من نفسك لنفسك ، وأطعِ الله إذا خلوت ، يُجِبْكَ إذا دعوت ، والسلام » .

من استغنى بالله أمِنَ من العدم :

وقال :

« كنت فى جبل الشام فرأيت رجلاً قاعداً مُطْرِقاً فقلت :

- ما تصنع هنا ؟

قال : أنظر وأرعى .

قلت : ما أرى عندك إلا الأحجار فما الذى تنظره وترعاه ؟

فنظر إلىَّ مُغْضَباً، وقال :

أنظر خواطر قلبى ، وأرعى أوامر ربى ، فبحقِّ مَنْ أطلعك علىَّ إلا رحتَ عنى .

قلت : كلمني بشيء أنتفع به وأذهب .

قال :

« **مَنْ لزم الباب أُثبت من الخدم ، ومَنْ أكثر ذكر الذنوب أعقبه كثرة الندم ، ومن استغنى بالله أَمِنَ من العدم** » . . ثم تركني ومضى» .

لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله :

وقال : « رأيت بسواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين أقبلتِ ؟

قالت :

من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

قلت : وإلى أين ؟

قالت :

إلى قوم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (١) .

في اليمن :

علامة الخوف من الله

وعن ذي النون قال :

« وُصِفَ لي رجل باليمن قد برز على الخائفين، وسَمَا على المجتهدين، وذُكِرَ لي بالحكمة، ووُصِفَ لي بالتواضع والرحمة، فخرجت حاجّاً، فلما قضيتُ نُسُكي مضيت إليه لأسمع من كلامه، وأنتفع بمواعظه أنا وأناس كانوا معي يطلبون منه مثل ما أطلب ،

(١) «الكواكب الدرية» ـ للمناوي .

ومعنا شاب عليه سيما الصالحين ، فخرج إلينا ، فجلسنا إليه ، فبدأ الشاب بالسلام عليه ، وصافحه ، فأبدى له الشيخ البِشْرَ والترحيب ، فسلمنا عليه جميعاً ، ثم بدأ الشاب بالكلام فقال :

ـ إن الله بِمَنّه وفضله قد جعلك طبيباً لسقام القلوب ، ومعالجاً لأوجاع الذنوب ، ولي جَرح قد تفل ، وداء قد استكمل ، فإن رأيت أن تتلطف لي ببعض مراهمك ، وتعالجني برفقك .

فقال له الشيخ :

ما بدا لك ؟

فقال له الشاب : يرحمك الله ، ما علامة الخوف من الله تعالى ؟

فقال :

أن يؤمِّنه خوفه من كل خوف غير خوفه.

ثم قال : يرحمك الله ، متى يتيسر للعبد خوفه من الله ؟

قال :

إذا أنزل نفسه من الدنيا بمنزلة السَّقيم فهو يحتمي من أكل الطعام مخافة السَّقام ، ويصبر على مضض كل دواء مخافة طول الضَّنا.

قال : فما علامة المحب لله ؟

قال :

إن درجة الحب درجة رفيعة.

قال : صِفْهَا لي ؟

قال :

إن المحبين لله شُقَّ لهم عن قلوبهم : فـأبصروا بنور القلوب إلى عزِّ جلال الله : فعبدوه بمبلغ استطاعتهم له ، لا طمعاً في جنته ، ولا خوفاً من ناره.

قال : فشهق الفتى وصاح صيحة كانت فيها نفسه » .

في المغرب :

القرآن حديثه والذكر رفيقه

قال يوسف بن الحسين ، سمعت ذا النون يقول :

« وُصِفَ لي رجل بالمغرب . . وذُكِرَ لي من حكمته وكلامه ما حملني على لقائه ، فرحلت إليه فأقمت على بابه أربعين يوماً على أن يخرج من منزله إلى المسجد ويقصدني ، فكان يخرج وقت كل صلاة ويصلي ويرجع كالوَالِه لا يكلم أحداً .

قلت له يوماً :

يا هذا ، إني مقيم هنا منذ أربعين صباحاً ، لا أراك تكلمني ؟

فقال لي :

هذا لساني سبعٌ إن أنا أطلقته أكلني.

فقلت له : عِظْني رحمك الله موعظة أحفظها عنك ؟

قال :

وتفعل ؟

قلت : نعم إن شاء الله .

قال :

لا تحب الدنيا ، وعُدَّ الفقرَ غِنًى، والبلاء من الله نعمة ، والمنع من الله عطاء ، والوحدة مع الله أُنساً ، والذل عِزاً ، والحياة موتاً ، واليأس غفلة ، والطاعة حرفة ، والتوكل معاشاً ، والله لكل شِدَّة عُدَّة .

ثم مكثت بعد ذلك شهراً لا يكلمنى ، فقلت : رحمك الله إنى أريد الرجوع إلى بلدى ، فإن رأيت أن تزيدنى فى الموعظة ؟

فقال :

اعلم أن الزاهد فى الدنيا : قُوْتُه ما وجد ، ومسكنه حيث أدرك ، ولباسه ما ستره . الخلوة مجلسه ، والقرآن حديثه ، والله الجبار العزيز أنيسه ، والذِّكْر رفيقه ، والصمت جنبه ، والخوف سَجِيَّته ، والشوق مَطِيَّته ، والاعتبار فكره ، والصبر وساده ، والحكمة كلامه ، والعقل دليله ، والعلم خليله ، والجوع إدامه ، والبكاء دأبه .

قلت : بمَ يتبين الزيادة والنقصان ؟

قال :

عند المحاسبة للنفوس ».

بِمَ عرفتَ الله ؟:

وروى أبو نعيم فى «الحلية» عن سعيد بن عثمان ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« وُصفَ لى رجلٌ صالح فقصدته فأقمت على بابه أربعين يوماً ، فلما كانَ بعد ذلك رأيته ، فلما رآنى هرب منى ، فقلت له : سألتك بالله ، بم عرفت الله ؟ . . وبأى شىء تعرَّف إليك الله حتى عرفته ؟

فقال لي :

نعم ، رأيت أن لي حبيباً إذا قربت منه قرَّبني وأدناني ، وإذا بعدت عنه صاح بي وناداني ، وإذا قمت بالفترة رغَّبني ومَنَّاني ، وإذا عملت بالطاعة زادني وأعطاني ، وإذا عملت بالمعصية صبر عليَّ وتأنَّاني ، فهل رأيت حبيباً مثل هذا ؟ .. انصرفْ عني ولا تشغلني » .

إن لله عباداً لو أقسموا على الله لأبَرَّهُمْ :

حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم ، قال :

قلت لذي النون :

- صِفْ لنا من خيار ما رأيت ، فذرفت عيناه وقال :

« ركبنا مرة في البحر نريد جدة ، ومعنا فتى من أبناء نيف وعشرين سنة ، قد ألبس ثوباً من الهيبة ، فكنت أحب أن أكلمه فلم أستطع ، بينما نراه قارئاً ، وبينما نراه صائماً ، وبينما نراه مسبِّحاً ، إلى أن رقد ذات يوم ، ووقعت في المركب تهمة ، فجعل الناس يفتش بعضهم بعضاً إلى أن بلغوا الفتى النائم . فقال صاحب الصُّرَّة :

- لم يكن أحد أقرب إليَّ من هذا الفتى النائم .

فلما سمعت ذلك قمت فأيقظته ، فما كان منه إلا أن توضأ للصلاة وصلى أربع ركعات ، ثم قال :

- يا فتى، ما تشاء ؟

فقلت : إن تهمة وقعت فى المركب ، وإن الناس قد فتش بعضهم بعضاً حتى بلغوا إليك .

فالتفت إلى صاحب الصرة وقال :

ـ أكما يقول ؟..

فقال : نعم ، لم يكن أحد أقرب إلىَّ منك .

فرفع الفتى يديه يدعو وخفتُ على أهل المركب من دعائه ، وخُيِّلَ إلينا أن كل حوت فى البحر قد خرج ، وفى فم كل حوت دُرَّة ، فقام الفتى إلى جوهرة فى فم حوت فأخذها فألقاها إلى صاحب الضرة ، وقال :

ـ فى هذه عِوَضٌ عما ذهب منك ، وأنت فى حِلٍّ » .

كيف السخاء ؟:

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« بينما أنا أسير فى جبال أنطاكية إذا أنا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة من صوف ، فسلمت عليها ، فردت السلام ثم قالت :

ـ ألست ذا النون ؟

قلت : عافاك الله ، كيف عرفتنى ؟

قالت :

عرفتك باتصال معرفة حب الحبيب . ثم قالت :

ـ أسالك عن مسألة ؟

قلت : سَلى .

قالت :

كيف السخاء ؟

قلت : البذل والعطاء .

قالت :

هذا سخاء فى الدنيا ، فما السخاء فى الدين ؟

قلت : المسارعة إلى طاعة المولى لينال منه خيراً .

قالت :

لينال منه خيراً ؟!

قلت : نعم ، الحسنة بعشرة أمثالها .

قالت :

سِرْ يا بَطَّال ، هذا فى الدين قبيح ، ولكنَّ المسارعة إلى طاعة المولى أن يطَّلع على قلبك وأنت لا تريد منه شيئاً بشىء ، وَيْحَكَ يا ذا النون .. إنى أريد أن أطلب منه شيئاً ـ منذ عشرين سنة ـ فأستحى منه أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب أجراً ، ولكنْ أعمل تعظيماً لهيبته وعزته وجلاله . . ومرَّتْ وتركتنى »[1] .

كل مطيع مستأنس :

وقال : وجدت مكتوباً على صخرة ببيت المقدس :

« كل عاصٍ مستوحش ، وكل مطيع مستأنس ، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالبٌ ، وكل قانعٍ غنيٌّ ، وكل محبٍّ ذليل » .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» .

ففكرت فإذا هي أصول لكل ما استعبد الله به الخَلْق .

سبحانه.. ما أمهله للأنام !:

حدثنا سعيد بن الحكم قال : سمعت ذا النون يقول :

« دخلت على متعبدة ، فقلت لها : كيف أصبحت ؟

قالت :

أصبحتُ من الدنيا على فناء ، مبادرةً للجهاز ، متأهبةً لهول يوم الجواز ، لله عليَّ نِعَمٌ أعترف بتقصيرى عن شكرها ، وأقرُّ بضعفى عن إحصائها وذكرها ، قد غفلت القلوب عنه وهو مُنشيها ، وأدبرت عنه النفوس وهو يناديها .. فسبحانه ؛ ما أمهله للأنام .. مع تواتر الأيادى والإنعام » .

فى بلاد الشام :

سبحان من أذاق قلوب العارفين حلاوة الانقطاع إليه

قال : وسمعت ذا النون يقول :

« بينما أنا أسير فى بلاد الشام ، إذا أنا بعابد خرج من أحد الكهوف ، فلمَّا نظر إليَّ استتر بين الأشجار ثم قال :

أعوذُ بك ـ سَيِّدى ـ ممن يشغلنى عنك ، يا مأوى العارفين ، وحبيب التوابين ، ومُعين الصادقين ، وغاية أمل المحبين .

ثم صاح :

وا غمَّاه من قلة البكاء ، وا كرباه من طول المكث فى الدنيا.

ثم قال :

سبحان من أذاق قلوب العارفين به حلاوة الانقطاع إليه ، فلا شىء ألذ عندهم من ذِكْره ، والخلوة بمناجاته .

ثم مضى وهو يقول :

قُدُّوسٌ ، قُدُّوسٌ ، قُدُّوس.

فناديته : أيها العابد ، قِفْ لى ؟ . . فوقف لى وهو يقول :

- اقطعْ عن قلبى كل علاقة ، واجعل شغله بك دون خَلْقك.

فسلَّمت عليه ثم سألته أن يدعو الله لى ، فقال :

- خَفَّفَ الله عنك مُؤَنَ نَصَبِ السير إليه ، وَدَلَّكَ على رضاه ، حتى لا يكون بينك وبينه علاقةُ طلبِ منفعةٍ أو دنيا ..

ثم سعى من بين يدىَّ كالهارب من سبع " .

* * *

المُناجى

إن المناجاة لله - سبحانه - تختلف باختلاف درجات الناس الروحية، وهى تتناسق عند كل شخص مع درجته فى معراجه إلى الله سبحانه وتعالى.

إن مناجاة الذين بدءوا معراجهم إلى الله تعالى عن طريق الخطوة الأولى وهى التوبة إنما تكون فى جو:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١).

تكون فى جو هذه الآية بمعناها المألوف، أى أنه بعد ارتكاب المعصية يحاول إزالتها أو إزالة آثارها بالتوبة الصادقة.

ونقول: «بمعناها المألوف»؛ لأن هذه الآية الكريمة يقولها المرتكب للمعصية، فتكون بمعنى، ويقولها الصالحون فيتلوَّن معناها بلون آخر، ويقولها الصدِّيقون الذين لا يرتكبون المعاصى، وذلك لأنهم صدقوا مع الله واستقاموا على الطريقة، فيأخذ المعنى شكلاً آخر.

ويقولها الأنبياء والمرسلون، فلا يكون بينها وبين المعصية المألوفة صلة من قريب أو بعيد.

لقد طلب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ شيئاً من الدعاء ينتفع به، فعلَّمه رسول الله ﷺ الدعاء الآتى:

---

(١) سورة الأعراف: ٢٣.

«اللهمَّ إنِّى ظلمتُ نفسى ظلماً كثيراً (وفى رواية: كبيراً) **ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ فاغفرْ لى مغفرةً مِنْ عِنْدِكَ ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »**.

وهذا الدعاء إنما هو دعاء من جو التوبة، ولكنه على لسان أبى بكر رضي الله عنه لا يمتُّ بسبب - من قريب أو من بعيد - إلى جو المعاصى التى تحدث من العامة أو الجهلة.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«يا أيُّها الناسُ ، تُوبوا إلى اللهِ واسْتَغْفِرُوه : فإنِّى أتوبُ إليهِ وأستغفرهُ فى اليوم مائةَ مَرَّة ».

وتوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما هى توبة عبادة، تتصل بكثرة الحسنات، ولا صلة لها بالسيئات .

ولقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما روى الشيخان ، بسندهما - عن أبى موسى عبد الله بن قيس رضي الله عنه :

« اللهمَّ اغفرْ لى خَطيئتى وجَهْلى، وإسْرافى فى أمْرى ، وما أنتَ أعلمُ به منِّى. اللهمَّ اغفرْ لى جِدِّى وهَزْلى، وخَطئى وعَمْدى، وكل ذلك عِندى. اللهمَّ اغفرْ لى ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنتَ أعلم به منِّى ، أنتَ المقدِّم وأنتَ المؤخِّر ، وأنتَ على كل شىء قدير».

وهذا الدعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمثاله، إنما هو عبادة لله سبحانه فى صورة من صور العبادة، وهى صورة التذلل والعبودية، والابتعاد عن كل صور الفخر والكبرياء، وادِّعاء الكمال .

وجو التوبة - بحسب هذا الشرح الذى شرحناه - يختلف باختلاف

الذين يناجون الله ، ويتسامى هذا الجو شيئاً فشيئاً ، ويسير من التوبة عن المعاصى إلى التوبة التى هى عبودية ، تلك التى إذا أكثر الإنسان منها أدخلته فى رحاب حب الله له :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** ﴾[1] .

ومناجاة أهل الورع إنما هى جو :

« **اللهمَّ أغْنِنَا بحلالكَ عن حرامكَ** » .

وهذا الدعاء بمعناه الحرفىّ هو من سمات أهل الورع ، وعادة يكون فى النواحى المادية ، ولكن معناه أيضاً يخضع لألوان كثيرة من المعانى بحسب القائلين ، ويتسع المعنى فيشمل الوجدانيات : خطرات النفس وهمسات الضمير .

ومناجاة الزاهدين إنما تكون تضرُّعاً إلى الله سبحانه حتى يُيَسِّر لهم التحقق بمعنى الآية الكريمة :

﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾[2] .

فإذا وجد التحقق بمعنى الآية الكريمة وجد الزهد .

وقد يكون من مناجاة الزاهدين طلب السعة فى الرزق مثل :

« **اللهمَّ وسِّعْ عليَّ رزقى فى دنياى ، ولا تَحْجُبْنِى بها عن أُخْراى** » .

ولكن هذا الدعاء يكون فى جو :

﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

(٢ ، ٣) سورة الحديد : ٢٣ .

وأبو الحسن الشاذلى الذى كان يقول هذا الدعاء، كان يقول أيضاً عن الدنيا :

« **اللهمَّ اجْعَلْها فى أيدينا ولا تَجعلْها فى قلوبنا** » .

وهذا يتماشى مع جو الآية الكريمة .

ولا يتنافى الغنى والزهد ـ إذن ـ حينما يتحقق الإنسان بالجو الشريف للآية القرآنية الكريمة .

ومناجاة المتوكلين تكون فى جو الآية الكريمة :

﴿ **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾(١) .

وهم يوقنون بالحقيقة القرآنية :

﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾(٢) .

وأجواء المناجاة لا تكاد تُحَدُّ :

منها جو مؤمن آل فرعون، وهو جو :

﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾(٣) .

وثمرة هذا الجو إذا تحقق به الإنسان هو ما ذكره الله تعالى بقوله :

﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾(٤) .

ومنها الجو اليونسىُّ :

---

(١) سورة الممتحنة : ٤ .

(٢) سورة الطلاق : ٣ .

(٣) سورة غافر : ٤٤ .

(٤) سورة غافر : ٤٥ .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

وهو جو توحيد ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ ﴾ ، وتنزيه ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ، ونسبة الظلم بمعناه العام إلى النفس ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] .

ومنها جو الرضا :

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[3] .

ومنها جو الحب :

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[4] .

وأسمى الأجواء في المناجاة - على الإطلاق - إنما هو جو رسول الله ﷺ ، وهو جو « الإسلام » : إسلام النفس لله .

إنه جو رسول الله ﷺ الذي عبر الله سبحانه وتعالى عنه صراحة في القرآن الكريم قائلاً :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[5] .

إنه الجو الذي بينه رسول الله ﷺ حينما سئل عن الإسلام فقال :

« أن يُسْلِمَ لله قلبُكَ » .

فإذا ما أسلم الإنسان قلبه لله انطوت في ذلك كل المقامات : التوبة الدائمة ، الورع ، الزهد ، التوكل ، التفويض ، الفناء ، المحبة .

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ .
(٢) سورة الأنبياء : ٨٧ .
(٣) سورة المائدة : ١١٩ .
(٤) سورة المائدة : ٥٤ .
(٥) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

إن إسـلام القلب لله أسـاس المقـامـات وذروتهـا ، وهو المعنى الحقيقى لكلمة «إسلام» .

ومن هنا كانت مناجاة رسول الله ﷺ لا تَعْدلُها مناجاة .

ولقد تابع المسلمون رسول الله ﷺ ، فى إسلام القلب لله ، وتابعوه فى مناجاته ، واختلفت مناجاتهم باختلاف منازلهم .

وإن الصوفية ، بل وغير الصوفية يُعجبون ـ كل العُجْب ـ بمناجاة ابن عطاء الله السكندرى ، ويُعجبون ـ كل الإعجاب ـ بمناجاة أبى الحسن الشاذلى متمثلة فى أحزابه وأدعيته .

ونحن هنا نذكر مجموعة من مناجاة ذى النون المصرى ، إنها تمثل درجته الروحية السامية ، وسيرى القارئ بنفسه مدى السمو الذى بلغه ذو النون .

يروى أبو عثمان سعيد بن الحكم قال : سمعت ذا النون يقول :

« إلهى .. إنْ كان صَغُرَ فى جَنْبِ طاعتك عملى ، فقد كَبُرَ فى جَنْبِ رجائك أملى ».

« إلهى .. كيف أنقلبُ من عندك محروماً ، وقد كان حُسْنُ ظنى بك مَنُوطاً ».

« إلهى .. فلا تُبْطِلْ صِدْقَ رجائى لك بين الآدميين ».

« إلهى .. سمع العابدون بذكرك فخضعوا ، وسمع المذنبون بحُسْن عفوك فطمعوا ».

« إلهى .. إنْ كانت أسقطتنى الخطايا من مكارم لطفكَ ، فقد آنَسَنِى اليقين إلى مكارم عطفك ».

« إلهي .. إنْ أمَّنَتْنِي الغفلةُ من الاستعداد للقائك فقد نَبَّهَتْنِي المعرفةُ لكرم آلائك ».

« إلهي .. إنْ دعاني إلى النار أليمُ عقابك فقد دعاني إلى الجنة جَزِيلُ ثوابك ».

ويقول :

أمُوتُ وَمَا مَاتَتْ إلَيْكَ صَبَابَتِي   ولا قُضِيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أوْطارِي

مُنَايَ المُنَى كُلُّ المُنَى أنْتَ لِي مُنًى   وأنْتَ الغِنَى كُلُّ الغِنَى عِنْدَ افْتِقَارِي

وَأنْتَ مَدَى سُؤْلِي وَغَايَةُ رَغْبَتِي   وَمَوْضِعُ آمَالِي وَمَكْنُونُ إضْمَارِي

* * *

تَحَمَّلَ قَلْبِي فِيكَ مَا لاَ أبُثُّهُ   وإنْ طَالَ سُقْمِي فِيكَ أوْ طَالَ إضْرَارِي

وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْكَ مَا لَكَ قَدْ بَدَا   وَلَمْ يَبْدُ بَادِيهِ لأهْلٍ وَلاَ جَارِ

وَلِي مِنْكَ فِي الأحْشَاءِ دَاءٌ مُخَامِرٌ   فَقَدْ هَدَّ مِنِّي الرُّكْنَ وانبتَّ إسْرَارِي

* * *

ألَسْتَ دَلِيلَ الرَّكْبِ إنْ هُمْ تَحَيَّرُوا   وَمُنْقِذَ مَنْ أشْفَى عَلَى جُرُفٍ هَارِ

أنَرْتَ الهُدَى لِلمُهْتَدِينَ وَلَمْ يَكُنْ   مِنَ النُّورِ فِي أيْدِيهِم عُشْرُ مِعْشَارِ

فَنَلْنِي بِعَفْوٍ مِنْكَ أحْظَى بِقُرْبِهِ   أغِثْنِي بِيُسْرٍ مِنْكَ يَطْرُدُ إعْسَارِي

* * *

وعن عبد القدوس بن عبد الرحمن الشامى ، قال :

سمعت أبا الفيض ذا النون يقول :

« إلهى .. من ذا الذى ذاق طعم حـلاوة مناجـاتك ، فَألْهَـاهُ شىءٌ عن طاعتك ومرضاتك ؟ ..

أم من ذا الذى ضمنتَ له النصر فى دنياه وآخـرته ، فاستنصرَ بمن هو مثله فى عجزه وفاقته ؟ ..

أم من ذا الذى تكفَّلتَ له بالرزق فى سقمه وصحته. فاسترزقَ غيرك بمعصيتك فى طاعته ؟ ..

أم من ذا الذى عَرَّفته آثامه، فلم يحتمل خوفاً منك مؤونة فطامه ؟..

أم من ذا الذى أَطْلَعْـتَهُ على مـا لديك ، ثم انقطع إليك من كـرامتـه ، فاعرضَ عنك صَفْحاً إخلاداً إلى الدَّعة فى طلب راحته ؟ ..

أم من ذا الذى عرف دنياه وآخرته ، فآثر الفانى على الباقى؛ لحمقه وجهالته ؟ ..

أم من ذا الذى شرب الصافى من كأس محبتك ، فلم يستبشرْ بقَوارع محنتك ؟ ..

أم من ذا الذى عرف حُسْنَ اختيارك، وقُدرتك على نفعه وضُرِّه، فلم يكتفِ بك عن علم غيرك به، ولم يستغنِ بك عن قدرة عاجز مثله؟!» . .

وعن سعيد بن الحكم القنفذى ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« كيف لا أبتهجُ بكَ سروراً ؛ وقد كنتُ أكْدَحُ ببابكَ حتى جعلتنى من أهل التوحيد » .

وعن عبد القدوس بن عبد الرحمن الشامى ، قال :

سمعت أبا الفيض ذا النون بن إبراهيم المصرى يقول :

« إلهى .. وسيلتى إليك نعمك علىَّ، وشفيعى إليك إحسانك إلىَّ.

إلهى .. أدعوك فى المَلاَ (الملأ) كما تُدْعَى الأرباب ، وأدعوك فى الخلا (الخلاء) كما تُدعى الأحباب .. أقول فى الملا : يا إلهى .. وأقول فى الخلا : يا حبيبى.

أرغب إليك ، وأشهد لك بالربوبية ، مُقِراً بأنك ربى، وإليك مَرَدِّى.

ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئاً مذكوراً وخلقتنى من تراب ثم أسكنتنى الأصلاب ، ونقلتنى إلى الأرحام..

أنشأت خلقى من مَنِيٍّ يُمْنَى،ثم أسكنتنى فى ظلمات ثلاث ، بين دم ولحم ملتاث، وكوَّنتنى فى غير صورة الإناث.

ثم نشرتنى إلى الدنيا تاماً سوياً ، وحفظتنى فى المهد طفلاً صغيراً صبياً ، ورزقتنى من الغذاء لبناً مَرِيّاً ، وكَلَّفتنى حُجور الأمهات ، وأسكنتَ قلوبهنَّ رقَّةً لى وشفقة علىَّ ، ورَبَّيتنى بأحسن تربية ، ودبَّرتنى بأحسن تدبير ، وكَلأتَنِى من طوارق الجنِّ ، وسلَّمتنى من شياطين الإنس، وصُنْتنى من زيادة فى بدنى تشيننى، ومن نقص فيه يعيبنى ، فتباركتَ ربى وتعاليت يا رحيم.

فلما استهللتُ بالكلام أتممتَ علىَّ سوابغَ الإنعام، وأنبتَّنى زائداً فى كل عام ، فتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام.

حتى إذا مَلَّكتنى شأنى ، وشددتَ أركانى ، أكملتَ لى عقلى ، ورفعتَ حجاب الغفلة عن قلبى ، وألهمتنى النظر فى عجيب صنائعك ، وبدائع

عجائبك ، وأوضحتَ لى حجتك ، ودللتنى على نفسك ، وعرَّفتنى ما جاءت به رسلك، ورزقتنى من أنواع المعاش وصنوف الرِّيَاش بِمَنِّكَ العظيم ، وإحسانك القديم ، وجعلتنى سَوِيّاً.

ثم لم ترضَ لى بنعمة واحدة دون أن أتممت علىَّ جميع النعم ، وصرفت عنِّى كل بلوى، وأعلمتنى الفجور لأجتنبه، والتقوى لأقترفها، وأرشدتنى إلى ما يقرِّبنى إليك زُلْفَى ، فإن دعوتك أجبتنى، وإن سألتك أعطيتنى ، وإن حمدتك شكرتنى ، وإن شكرتك زِدتنى.

إلهى .. فأىُّ نعمك أُحصى عدداً ؟

.. وأى عطائك أقوم بشكره ؟

.. كم أسبغتَ علىَّ من النعماء ؟

.. وكم صرفتَ عنِّى من الضرَّاء ؟

إلهى .. أشهد لك بما شهد لك باطنى وظاهرى وأركانى.

إلهى .. إنى لا أطيق إحصاء نعمك ، فكيف أطيق شكرك عليها ، وقد قلت وقولك الحق:

﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾(1) ؟ . .

أم كيف يستغرق شكرى نعمك ، وشكرك من أعظم النعم عندى ، وأنت المنعم به علىَّ ؟.. كما قلت سَيِّدى : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾(2) . . وقد صدَّقتُ قولك ؟

(1) سورة النحل : ١٨ .
(2) سورة النحل : ٥٣ .

إلهى وسَيِّـدى .. بلَّغتْ رسلك بما أنزلت إليهم من وحيك ، غـير أنى أقول بجهدى ، ومنتهى علمى ، ومجهود وسعى ، ومبلغ طاقتى:

الحمد لله على جـميع إحسانه ، حمداً يعدل حـمد الملائكة المقرَّبين ، والأنبياء المرسلين، حتى تقيم قلبى بين ضـياء معرفتك، وتذيقنى طعم محبـتك ، وتبرِّد بالرضا منك فـؤادى وجميع أحوالى ، حـتى لا أختـار غير ما تختاره ، وتجعل لى مـقاماً بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطرباً فسيحاً فى ميدان طاعتك.

إلهى .. كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك ؟ أم كيف أسخطك فى رضا من لا يقدر على ضُرِّى إلا بتمكينك ؟!

فيا مَنْ أسأله إيناساً به ، وإيحاشـاً من خلقه ، ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجـائى .. ارحمْ غربتى ، وهَبْ لى من المعرفـة ما أزداد به يقيناً ، ولا تَكِلْنِى إلى نفسى الأمَّارة بالسوء طرفةَ عين » .

وحدثنا سعيد بن الحكم، قال : سمعت ذا النون يقول :

خرجت فى طلب المناجاة، فإذا أنا بصوت، فعدلت إليه، فإذا أنا برجل قـد غـاص فى بحـر الولَه، وخـرج على سـاحل الكمَـه، وهو يقول فى دعائه :

« أنت تعلم أنى لأعلمُ أن الاسـتغـفار مع الإصـرار لؤم ، وأن تركى الاستغفار مع معرفتى بسعة رحمتك لَعَجْزٌ.

إلهى .. أنت الذى خـصصتَ خصـائصك بخالـص الإخلاص ، وأنت الذى سلَّمْتَ قلوب العارفين من اعـتراض الوسواس ، وأنت الذى آنسْتَ

الآنسين من أوليائك ، وأعطيتهم كفاية رعاية المتوكلين عليك ، تكلؤهم في مضاجعهم وتَطَّلِعُ على سرائرهم ، وسِرِّى عندك مكشوف وأنا إليك ملهوف » .

قال : ثم سكتَ فلم أسمع له صوتاً .

ثم سمعته يقول :

« لك الحمد يا ذا المَنِّ والطَّوْل ، والآلاء والسعة ، إليك توجهنا ، وبفنائك أنخنا ، ولمعروفك تعرَّضنا ، وبقربك نزلنا ، يا حبيب التائبين ، ويا سرور العابدين ، ويا أنيس المنفردين ، ويا حِرْزَ اللاجئين، ويا ظَهْر المنقطعين، ويا من حَبَّبَ إليه قلوب العارفين، وبه أنِسَتْ أفئدة الصِّدِّيقين ، وعليه عَكَفَتْ رهبة الخائفين.

يا من أذاق قلوب العابدين لذيذ الحمد ، وحلاوة الانقطاع إليه.

يا من يَقبلُ من تاب، ويعفو عَمَّنْ أناب ، ويدعو المولِّين كَرَماً، ويرفع المقبلين إليه تفضُّلاً.

يا من يتأنَّى على الخاطئين ، ويَحْلُمُ عن الجاهلين.

يا من حَلَّ عقدة الرغبة من قلوب أوليائه ، ومحا شهوة الدنيا عن فكر قلوب خاصته وأهل محبته ، ومنحهم منازل القرب والولاية.

ويا من لا يُضيِع مطيعاً ، ولا يَنْسَى حبيباً.

يا من مَنَحَ بالنَّوال ، ويا مَنْ جادَ بالاتصال ، يا ذا الذى استدركَ بالتوبة ذنوبنا ، وكشفَ بالرحمة غمومنا ، وصَفَحَ عن جُرمنا بعد جهلنا، وأحسنَ إلينا بعد إساءتنا، يا أنِسَ وحشتنا، ويا طبيب سُقمنا.

يا غياثَ من أسقط بيده ، وتمكّن حبل المعاصى من عنقه ، وفرَّ حذَر الحياء عن وجهه ، هَبْ خدودنا للتراب بين يديك ، يا خيرَ من قدَر، وأرْأف مَنْ رَحِمَ وعَفَا ».

وكان ذو النون يقول فى مناجاته :

« يا واهبَ المواهب ، ومُجزلَ الرغائب ، أعوذ بك من النزول بعد الوصول ، ومن الكدر بعد الصفاء ، ومن الوحشة بعد الأنس ، ومن طائف الحسرة لعارض الفترة ، ومن تغيير الرضا » . .

وروى ابن باكويه عن يوسف بن الحسين قال : كان من مناجاة ذى النون أنه كثيراً ما كان يقول :

« اللهمَّ بحياتك الدائمة القائمة على كل نفس بما كسبتْ ، أكْسُ وجهى حياءً ، وارزقنى طاعةً أُطِعْكَ بها فى الدنيا » .

وكان يقول :

« لَئِنْ مددتُ يدىَّ إليك داعياً .. لطالما كفيتنى ساهياً ، كيف يَشْقَى بالدعاء من كُفِىَ قبل الدعاء ؟ ..

اللهمَّ حَسْبِىَ من سؤالى علْمُك بحالى » .

وقال : وسمعت ذا النون يقول :

« لَئِنْ مددتُ يدى إليك داعياً ، لطالما كفيتنى ساهياً.

.. أأقطع منك رجائى بما عملتْ يداى ؟

.. حَسْبِى مِنْ سؤالى عِلْمُكَ بحالى » .

وقال :

« إلهى .. إنَّ الشيطان لك عَـدُوٌّ ولنا عَدُوٌّ، ولم تغظه بشيء أنْكَى له من عفوك عنا ، فاعفُ عنَّا » .

وعن عبد الله بن محمد بن ميمون ، قال : سمعت ذا النون يقول فى مناجاته :

« سَيِّدى: زمانٌ مكيد،وبلاءٌ عتيد، وجهدٌ جهيد، وأملٌ بعيد، وشيطانٌ مَريد ، وعَيْشٌ كَدود ، وعدوٌّ حـسود ، وخُلْفٌ موجود ، ووفاقٌ مفقود ، فكيف النجاة إلا بعصمتك أيها المعبود » .

وعن محمد بن عبد الملك ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« اللهمَّ اجعلنا من الذين استنبطوا الحَـذَر ، وقرأوا صُحف الخطايا ، وأكثروا [من التفكيـر فى] دواوين الذنوب ، فأورثهم الفكرة الصالحة فى المنقلَب »(١) .

وعن أحمد بن على البغدادى ، قال :

كنت عند ذى النون وعنده جماعة من المتعلمين ، فقالوا :

ـ ادعُ لنا يا أبا الفيض ؟ . .

فقال لهم :

« جَعَلَكم الله من الذين سَلكوا خلافَ دار الظالمين ، واستوحشوا من مُؤانسة الجاهلين ، واجتنبوا ثمـار الكَدِّ ، فورَّثهم حُسْنَ المآب ، فقطعوا الأحزان ، ووصلوا إلى الجنان ، وأمنوا من البَوَار، فاستقرَّتْ بهم الدار، بقُرب المَلِك الجبَّار » .

---

(١) أخرجه أبو نعيم .

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« إن لله عباداً مَلأ قلوبهم من صفاء محبته وهيَّج أرواحهم بالشوق إلى رؤيته ، فسبحان من شوَّق إليه أنفسهم ، وأدنى منه هِمَمَهم ، فهو مؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم.

إلهى .. لك تواضعتْ أبدانهم ، وإلى الزيادة منك انبسطتْ أقدامهم ، فأذقتهم من حلاوة الفهم ما طَيَّبْتَ به عيشهم ، وأدَمْتَ به نعيمهم ، ففتحتَ لهم أبواب سماواتك ، وأبَحْتَ لقلوبهم الجَولان فى ملكوتك.

عليك مُعَوَّلُ شوق المشتاقين ، وإليك هَفَتْ قلوب العارفين ، وبك أنِسَتْ قلوب الصادقين ، وعليك عكفتْ رهبة الخائفين ، وبك استجارتْ أفئدة المقصِّرين ، فهم لا يسكنون إلى محادثة الفكر فيما لا يعنيهم ، ولا يفترون عن التعب والسهر.

يناجون ربَّهم بألسنتهم، ويتضرعون إليه بمسكنتهم، يسألونه العفو عن زَلَّاتهم ، والصَّفْح عما وقع من الخطايا فى أعمالهم ، فهم الذين ذابتْ قلوبهم بذكر الأحزان ، وخدموه خدمة الأبرار الذين خفيتْ أعمالهم عن الحَفَظَة ، فوقع بهم ما أمَّلوه من عفوه ، ووصلوا إلى ما أرادوا من محبته ، فهم ـ والله ـ الزهَّاد والعبَّاد ، الذين حملوا أثقال الزمان فلم يتألموا ، وثبتوا فى مواطن الامتحان فلم تزلّ أقدامهم عن موضعها ، حتى مَلَّهم الدهر ، وهابتهم المصائب ، وذهبوا بالصدق والإخلاص عن الدنيا.

إلهى .. فبك نالوا ما أمَّلوا ؛ إذ كنت لهم ـ سَيِّدى ـ مؤيداً ، ولعقولهم مُعيناً ، حتى أنطقتهم بلسان الصادقين فى علمك ، وأوصلتهم إلى

منازل المخلصين في معرفتك ، فهم إلى وعد سَيِّدهم مطيعون ، وإلى ما عنده ناظرون.

ذهبت الآلام من أبدانهم لما أذاقهم من حلاوة مناجاته ، ولما أذاقهم من طرائف الفوائد من عنده ، فيا حسنهم والليل قد أقبل بِحَنَادس[1] ظلمته ، وهدأتْ عنهم أصوات خليقته ، وقد قدموا إلى خدمة سَيِّدهم الذى وفقهم لما يعلمون ويؤملون ، فخطر على سِرِّهم أن ذلك المقام الذى يقومون فيه لرب العالمين ، فانخلعتْ قلوبهم ، وذهلتْ عقولهم ، وصاروا كالمعلَّق بين السماء والأرض...أخيارٌ أبرارٌ : أَنِسُوا بيقين المعرفة ، وسكنوا إلى روح الحياة والمراقبة »[2] .

وقال :

« أسألك باسمكَ الذى ابتدعتَ به عجائب الخَلْق أن تجعلنا من الذين شربوا بكأس الصفا ؛ فأورثهم الصبر على طول البلا ، حتى تولَّهتْ قلوبهم فى الملكوت ، وجَالَتْ بين سائر حُجُب الجبروت ، ومَالَتْ أرواحهم فى ظل برد نسيم المشتاقين، الذين أناخوا فى رياض الراحة ، ومَعْدِن العِزِّ ، وعَرَصَات المخلَّدين » .

وقال ذو النون :

« إلهى .. ما أُصغى إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنُّم طير، ولا تنعُّم ظل ، ولا دوىً ريح ، ولا قعقعة رعد ؛ إلا

---

(١) الحَنْدس : الظلمة ، والليل الشديد الظلمة . وأسود حَنْدس : شديد السواد . والجَمع : حنادس . والحنادس : ثلاث ليالٍ فى آخر الشهر .

(٢) أخرجه أبو نعيم .

وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على كمال عزك، وعلى أنه ليس كمثلك شيء .. وأنت غالبٌ لا تُغْلَب ، وعليمٌ لا تجهل ، وحليمٌ لا تسفه ، وعدلٌ لا تجور، وصادقٌ لا تكذب.

إلهى .. فإنى أعترف بما دل عليه صُنعك ، وشهد له فِعلُك ، فَهَبْ لى - اللهمَّ - طلبَ رضاك برضاى عنك ، ومَسَرَّةَ الوالد لولده بذكرك لحبى لك ، ووقارَ الطمأنينة وتَطَلُّبَ القرب منك..

إلهى .. عَرِّفنى عيوب نفسى وافضحها عندى للتنزُّه عنها .. وأبتهل إليك بين يديك خاضعاً ذليلاً فى أن تغسلنى منها، واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم ، وغابت قلوبهم : تجول فى ملكوتك ، وتتفكر فى عجائب صنعك، وترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك، قد ألبستهم خُلَعَ محبتك ، وخلعت عنهم لباس التزيُّن بغيرك.

إلهى .. لا تتركْ بينى وبين أقصى مرادك منِّى حجاباً إلا هتكته، ولا حاجزاً إلا رفعته ، ولا وعراً إلا سهَّلته ، ولا باباً إلا فتحته ، وبَرِّدْ بالرضا منك فؤادى وجميع أحوالى ، حتى لا أختار غير ما تختاره ، وتجعل لى مقاماً بين مقامات أهل ولايتك، ومضطرباً فسيحاً فى ميدان طاعتك.

إلهى .. كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك ؟..

أم كيف أستنصر من لا ينصرنى إلا بك ؟ ..

أم كيف أسخطك فى رضا من لا يقدر على ضُرِّى إلا بتمكينك ؟..

فيا من أسأله إيناساً وأماناً من خلقه .. ويا من إليه ألجأ فى شدتى ورخائى ، ارحمْ غربتى ، وهَبْ لى من المعرفة ما أزداد به يقيناً.. ولا تَكِلْنى إلى نفسى الأمَّارة بالسوء طرفةَ عين » .

وعن عثمان بن محمد العثمانى قال : أنشدنى العباس بن أحمد لذى النون المصرى :

إذَا ارْتَحَلَ الكِرَامُ إلَيْكَ يَوْماً ... لِيَلْتَمِسُوكَ حَالاً بَعْدَ حَالِ

فَإنَّ رِحَالَنَا حَطَّتْ لِتَرْضَى ... بِحِلْمِكَ عَنْ حُلُولٍ وَارْتِحَالِ

أَنَخْنَا فِي فِنَائِكَ يَا إلَهِي ... إلَيكَ مُعَرِّضِينَ بلا اعْتِدَالِ

فَشِئْنَا كَيْفَ شِئْتَ وَلاَ تَكِلْنَا ... إلى تَدْبِيرِنَا يَا ذَا المَعَالِي

وعن يوسف بن الحسين ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« أقسمتُ بفعلك المحمود ، وعهدك المعقود..ألاّ أتخذَ دونك خليلاً »..

وسمعته يقول :

« أشرقَ لنوره السموات ، وأنارَ لوجهه الظلمات ، حَجَبَ جلاله عن العيون ، ووَاصَلَ به معارف القلوب ، ونَاجَاهُ على عرشه ألسنةُ الصدور.

إلهى .. تسبّح لك كل شجرة ، ولك تقدّس كل مَدَرَة ، بأصوات خفيَّة ونغمات زكيَّة.

إلهى .. قد سَعَتْ بين يديك قدمى ، ورفعتُ إليك بصرى، وسَعَتْ إلى مواهبك يدى ، وصرخ إليك صوتى ، وأنت الذى لا يُضجره النّداء ، ولا يخيب من دعاك.

إلهى .. هَبْ لى بصراً يرفعه إليك صِدْقُه ، فإنَّ من تعرَّف بك غيرُ مجهول ، ومن يلوذ بك غيرُ مَخذول ، ومن يبتهج بك لَمسرور ، ومن يعتصم بك لَمنصور »[1].

(١) أخرجه أبو نعيم .

وعن الحسن بن على بن خلف قال : سمعت إسرافيل يقول : سمعت ذا النون يقول :

« يا رب ، أنت الذى دخل فى رحمتك كل شىء ، فلم تَضِقْ إلا عَمَّن ارتحل به الشك إلى جحدك » .

وفى «الحلية» قال ذو النون :

« اللهمَّ اجعلنا من الذين تفكَّروا ؛ فاعتبروا.. ونظروا ؛ فأبصروا .. وسمعوا ؛ فتعلَّقت قلوبهم بالمنازعة إلى طلب الآخرة .. حتى أناختْ وانكسرتْ عن النظر إلى الدنيا وما فيها .. ففتقوا بنور الحِكَم ما رتقته ظُلَمُ الغَفْلاَت .. وفتحوا أبواب مغاليق العمى بأنوار مفاتيح الضياء .. وعمَّروا مجالس الذاكرين بحسن استدامة الثناء.

اللهمَّ اجعلنا من الذين أَسْبَلْتَ عليهم سُتُورَ عصمة الأولياء .. وحصَّنتَ قلوبهم بطهارة الصفاء .. وزيَّنتها بالفهم والحياء ؛ فطيَّرتَ هومهم فى ملكوت سمواتك حجاباً حجاباً ؛ حتى انتهت إليك فرددتها بطرائف الفوائد.

اللهمَّ اجعلنا من الذين سَهل عليهم الطاعة .. ومُكِّنوا من أزمة [1] التقوى .. ومُنحوا بالتوفيق منازل الأبرار ؛ فزُيِّنوا وقُرِّبوا وأكرموا بخدمتك » .

---

(١) أزمة التقوى ، أى : لزومها والمواظبة عليها .

وقال :

« إنك ملكٌ مُقْتَدِر، وأنا عبدٌ مُفْتَقِر، أسالكَ العفوَ تذلُّلاً ؛ فأعْطِنِيهِ تفضُّلاً » .

وقال :

« إلهي .. إن كان صغرَ في جنب طاعتك عملي ، فقد كبرَ في جنب رجائك أملي.

إلهي .. أنا عبدك المسكين ، كيف أنقلب من عندك محروماً ، وقد كان حسن ظني بجودك أن تقبلني بالنجاة مرحومًا.

إلهي .. سمع العابدون بذكرك فخضعوا ، وسمع المذنبون بحسن عفوك فطمعوا.

إلهي .. إن كانت أسقطتني الخطايا لَدَيكَ : فاصْفَحْها لي بحسن توكُّلي عليك .

إلهي .. إن كانت أسقطتني الخطايا من مكارم لطفك ، فقد آنسني اليقين إلى مكارم عطفك ».

وعن علي بن الهيثم المصري ، قال :

سمعت ذا النون المصري العابد أبا الفيض يقول :

« اللهمَّ اجعلنا من الذين جَازُوا ديار الظالمين ، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين ، وشَابُوا ثمرة العمل بنور الإخلاص ، واسْتَقُوا من عين الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح اليقين ، ولجَّجوا في بحر النجاة ، ورَسَوا بشطِّ الإخلاص .

اللهمَ اجعلنا من الذين سَرَحَتْ أرواحهم فى العُلاَ، وحَطَّتْ هِمَمُ قلوبهم فى عاديات التُّقَى، حتى أناخوا فى رياض النعيم، وجَنَوا من رياض ثمار التسنيم، وخاضوا لُجَّةَ السرور، وشربوا بكأس العيش، واستظلُّوا تحت العرش فى الكرامة.

اللهمَ اجعلنا من الذين فتحوا باب الصبر ، وردموا خنادق الجَزَع ، وجَازوا شديد العقاب ، وعبروا جسر الهوى، فإنه تعالى يقول:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾[١] .

اللهمَ اجعلنا من الذين أشارتْ إليهم أعلامُ الهداية، ووضحَ لهم طريقُ النجاة ، وسلَكوا سَبيلَ إخلاص اليقين ».

وعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يدعو :

« اللهمَ مَتِّعْ أبصارنا بالجَوَلان فى جلالك ، وسَهِّرْنَا عما نامت عنه عيون الغافلين ، واجعل قلوبنا معقودة بسلاسل النور ، وعَلِّقها بأطناب التفكُّر ، ونَزِّهْ أبصارنا عن مواقف المتحيِّرين ، وأطلقنا من الأَسْرِ لِنَجُولَ فى خدمتك مع الجوَّالين.

اللهمَ اجعلنا من الذين لخدمتك فى أقطار الأرض طلأباً، ولخصائص أصفيائك أصحاباً ، وللمريدين المعتكفين ببابك أحباباً » .

وعن محمد بن عبد الملك بن هاشم ، قال :

سمعت ذا النون المصرى يقول فى دعائه :

---

(١) سورة النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

« اللهمَّ إليك تقصدُ رغبتي ، وإيَّاك أسألُ حاجتي، ومنك أرجو نجاحَ طِلْبتي ، وبيدك مفاتيحُ مسألتي ، لا أسألُ الخيرَ إلا منك ، ولا أرجوه من غيرك ، ولا أيأسُ من روحك بعد معرفتي بفضلك ، يا من جمع كل شيء حكمتُه ، ويا من نفذ في كل شيء حُكمه ، يا منِ الكريم اسمه ، لا أجد لي غيرك فأسأله ، ولا أثق بسواك فآمله ، ولا أجعل لغيرك مشيئة من دونك أعتصم بها ، وأتوكل عليه ، فمن أسأل إن جَهِلْتُكَ ؟ .. وبمن أثق بعد إذ عرفتك ؟

اللهمَّ إن ثقتي بك، وإن ألهتني الغفلات عنك وأبعدتني العثرات منك بالاغترار ، أنا نعمة منك، وأنا قدر من قدرك، أجري في نعمك ، وأسرح في قدرك ، لا أزداد على سابقة علمك ، ولا أنتقص من عزيمة أمرك ، فأسألك يا منتهى السؤال ، وأرغب إليك يا موضع الحاجات ، أنْ تَهَبَ لي إيماناً أَقْدُمُ به عليك ... وأنْ تَهَبَ لي يقيناً لا تُوهنه شبهة إفْك ترحَب به صدري ، وتيسَّر به أمري ، ويأوي إلى محبتك قلبي ، حتىً لا ألهو عن شكرك ، ولا أنعم إلا بذكرك ، يا من لا تَمَلُّ حلاوة ذكره ألسنُ الخائفين ، ولا تَكلُّ من الرغبات إليه مدامع الخاشعين ، أنت منتهى سرائر قلبي في خفايا الكتم ، وأنت موضع رجائي بين إسراف الظلم.

من ذا الذي ذاق حلاوة مناجاتك ، فَلَهِيَ بمَرْضاةِ بَشَرٍ عن طاعتك ومرضاتك ؟

رَبِّ أفنيتُ عمري في شدة السهو عنك ، وأبليت شبابي في سكرة التباعد منك ، ثم لم أستبطئ لك كَلَاءةً ومَنَعَةً في أيام اغتراري بك ، وركوني إلى سبيل سخطك ، وعن جهل - يا رب - قرَّبَتْني الغرَّة إلى

غضبك ، أنا عبدك ابن عبدك ، قائم بين يديك ، متوسِّل بكرمك إليك ، فلا يزلني عن مقامٍ أقمتني فيه غيرُك ، ولا ينقلني من موقف السلامة من نعمك إلا أنت ، أتنصل إليك مما كنت أواجهك به من قلة استحيائي من نظرك ، وأطلب العفو منك يا رب ؛ إذ العفو نعمة لكرمك ، يا من يُعصَى ويُتاب إليه فيَرضى كأنه لم يُعصَ ، بكرم لا يُوصف ، وتحنُّن لا يُنعت ، يا حنَّانُ بشفقته ، يا متجاوزاً بعظمته ، لم يكن لى حَوْلٌ فأنتقل عن معصيتك إلا فى وقت أيقظتنى فيه لمحبتك ، وكما أردت أن أكون كنت ، وكما رضيت أن أقول قلت ، خضعت لك وخشعت لك.

إلهى .. لِتُعِزَّنِى بإدخالى فى طاعتك ، ولتنظرْ إلىَّ نظر من ناديته فأجابك، واستعملته بمعونتك فأطاعك، يا قريب لا تبعد عن المغترِّين، ويا ودودُ .. لا تَعْجَلْ على المُذْنِبين .. اغفرْ لى ، وارحمنى ، يا أرحمَ الراحمين » .

وعن عبد القدوس بن عبد الرحمن الشامى قال : سمعت ذا النون يقول :

« إلهى.. إن أهل معرفتك لما أبصروا العافية، ولمحوا بأبصارهم إلى منتهى العاقبة ، وأيقنوا بجودك وكرمك ، وابتدائك إيَّاهم بنعمك ، ودللتهم على ما فيه نفعهم ، إذ كنت متعالياً عن المضارِّ والمنافع ، استقلُّوا كثير ما قدَّموا من طاعتك ، واستصغروا عظيم ما اقترفوا من عبادتك ، واسْتَلَانوا ما استَوْعَرَهُ غيرُهم ، بذلوا المجهود فى طلب مرضاتك ، واستعظموا صغير التقصير فى أداء شكرك ، فنحلتْ لذلك

أبدانهم ، وتغيَّرتْ لذلك ألوانهم ، وخَلَتْ من غيرك قلوبُهم ، واشتغلتْ بذكرك عقولُهم وألسنتُهم ، وانصرفتْ عن خَلْقكَ إليكَ همومُهم ، وأنستْ وطابتْ بالخلوة فيك نفوسُهم ، لا يمشون بين العباد إلا هَوْناً ، وهم لا يسعون فى طاعتك إلا ركضاً.

إلهى .. فكما أكرمتهم بشرف هذه المنازل ، وأبَحْتَهُمْ رفعة هذه الفضائل ، اعقدْ قلوبنا بِحَبْلِ محبَّتك ، ثم جَوِّلنا فى ملكوت سمواتك وأرضك ، واستدرجْنا إلى أقصى مرادك درجةً درجةً، واسلكْ بنا مسلكَ أصفيائك منزلةً منزلةً ، واكشفْ لنا عن مكنون علمك حجاباً حجاباً ، حتى ننتهى إلى رياض الأنس، ونجتنى من ثمار الشوق إليك، ونشرب من حياض معرفتك ، ونتنزَّه فى بساتين نشر آلائك ، ونستنقع فى غدران ذكر نَعمائك ، ثم ارْدُدْها إلينا بطرف الفوائد ، وامددها بتحف الزوائد ، واجعلِ العيون منا فوَّارة بالعَبَرات ، والصدور منا محشوَّة بالحرقات ، واجعلْ قلوبنا من القلوب التى سافرتْ إليك بالجوع والعطش ، واجعلْ أنفسنا من الأنفس التى زالت عن اختيارها لهيبتك.

أَحْيِنَا ما أحييتنا على طاعتك ، وتَوَفَّنَا إذا توفَّيتنا على مِلَّتِك راضِين مرضيِّين ، هداة مهتدين ، غير مغضوب علينا ولا ضالين » .

وعن عثمان بن محمد العثمانى ، قال :

أنشدنى محمد بن عبد الملك بن هاشم لذى النون بن إبراهيم المصرى ، رحمه الله تعالى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْداً لا نَفَادَ لَهُ
حَمْداً يَفُوتُ مَدَى الإِحْصَاءِ وَالعَدَدِ
مِلْءَ السَّمَواتِ والأَرْضِينَ مُذْ خُلِقَتْ
وَوَزْنَهُنَّ وَضِعْفَ الضِّعْفِ فِي العَدَدِ
وَضِعْفَ مَا كَانَ أَوْ مَا قَدْ يَكُونُ إِلَى
يَوْمِ القِيَامَةِ أَوْ يَفْنَى مَدَى الأَبدِ
وَضِعْفَ أَنْعُمِهِ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ
وَكُلِّ نَفْسَةِ نَفْسٍ وَاكْتِسَابِ يَدِ
شُكْراً لِمَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِ نِعْمَتِهِ
مِنَ الهُدَى وَلَطِيفِ الصُّنْعِ وَالرِّفْدِ
رَبٌّ تَعَالَى .. فَلاَ شَيْءٌ يُحِيطُ بِهِ
وَهْوَ المُحِيطُ بِنَا فِي كُلِّ مُرْتَصَدِ
لاَ الأَيْنَ والحِيْنَ والكَيْفَ يُدْرِكُهُ
وَلا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ وَلاَ أَمَدِ
وَكَيْفَ يُدْرِكُهُ حَدٌّ وَلَمْ تَرَهُ
عَيْنٌ وَلَيْسَ لَهُ فِي المِثْلِ مِنْ أَحَدِ
أَمْ كَيْفَ يَبْلُغُهُ وَهْمٌ بِلا شَبَهٍ
وَقَدْ تَعَالَى عَنِ الأَشْبَاهِ وَالوَلَدِ

مَنْ أَنْشَأَ الشَّيْءَ قَبْلَ الكَوْنِ مُبْتَدِعاً
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ قَدِيمٍ كَانَ فِي الأَبَدِ

وَدَهَّرَ الدَّهْرَ وَالأَوْقَاتِ وَاحْتَكَمَتْ
بِمَا يَشَاءُ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ

إذْ لاَ سَمَاءٌ وَلاَ أَرْضٌ وَلاَ شَبَحٌ
فِي الكَوْنِ سُبْحَانَهُ مِنْ قَاهِرٍ صَمَدِ

مَا ازْدَادَ بِالخَلْقِ مُلْكاً حِيْنَ أَنْشَأَهُمْ
وَلاَ يُرِيدُ بِهِمْ دَفْعاً لِمُضْطَهِدِ

وَكَيْفَ وَهْوَ غَنِيٌّ لا افْتِقَارَ بِهِ
والخَلْقُ تَضْطَرُّ بِالتَّصْرِيفِ وَالأَدَدِ

وَلَمْ يَدَعْ خَلْقَ مَا لَمْ يَبْدُ خِلْقَتُهُ
عَجْزاً عَلَى سُرْعَةٍ مِنْهُ وَلاَ تُؤَدِ

إحَاطَةٌ بِجَمِيعِ الغَيْبِ عَنْ قَدَرٍ
أَحْصَى بِهَا كلَّ مَوْجُودٍ وَمُفْتَقَدِ

وَكُلُّهُمْ بِاضْطِرَارِ الفَقْرِ مُعْتَرِفٌ
إلَى فَوَاضِلِهِ فِي كُلِّ مُعْتَمَدِ

العَالِمُ الشَّيْءَ فِي تَصْرِيفِ حَالَتِهِ
مَا عَادَ مِنْهُ وَمَا يَمْضِي فَلَمْ يَعُدِ

وَيَعْلَمُ السِّرَّ مِنْ نَجْوَى القُلُوبِ وَمَا

يَخْفَى عَلَيْهِ خَفِيٌّ جَالَ فِي خَلَدِ

وَيَسْمَعُ الحِسَّ مِنْ كُلِّ الوَرَى وَيَرَى

مَدَارِجَ الذَّرِّ فِي صَفْوَانِهِ الجَلْدِ

وَمَا تَوَارَى مِنَ الأَبْصَارِ فِي ظُلَمٍ

تَحْتَ الثَّرَى وَمَرَارِ الغَمْرِ والثَّمَدِ(١)

الأَوَّلُ الآخِرُ الفَرْدُ المُهَيْمِنُ لَمْ

يَعْزُبْ وَلَمْ يُنْكَرْ لِلْقُرْبِ وَالبُعْدِ

دَانٍ عَلَى عِلْمٍ قَدِيمٍ لاَ زَوَالَ لَهُ

وَلَمْ يَزَلْ أَزَلِيّاً غَيْرَ ذِي فَقْدِ

وَجَلَّ فِي الكُنْهِ عَنْ وَصْفِ الصِّفَاتِ وَعَنْ

مَقَالِ ذَوِي الشَّكِّ وَالإِلْحَادِ وَالعِنْدِ

مَنْ لاَ يُجَازَى بِنُعْمَى مِنْ فَوَاضِلِهِ

وَلَمْ يَنَلْهُ بِمَدْحٍ وَصْفُ مُجْتَهِدِ

مُسَبَّحٌ بِلُغَاتِ العَارِفِينَ بِهِ

لَمْ تَدْرِ مَا غَيْرَهُ رَبّاً وَلَمْ تَجِدِ

---

(١) الماء القليل.

الفَـالِقُ النُّوْرَ وَالظَّلْمَـاءَ وَهْيَ عَلَى

مَـا تَقَـاذَفَ بِـالأَمْـوَاجِ والزَّبَدِ

بَرَأَ السَّـمَـوَاتِ سَقْـفـاً ثُمَّ أَنْشَـأَهَا

سَـبْعـاً طِبَاقـاً بِلاَ عَـوْنٍ وَلاَ عَمَـدِ

تُقِـلُّهُـنَّ مَعَ الأَرْضِـينَ قُـــدْرَتُهُ

وَكُـلُّ ذَلِـكَ لَـمْ يَثْـــقُلْ وَلَمْ يَـؤُدِ

وَبَثَّ فِـيـهَـا صُنُوفـاً مِنْ بَدَائِعِـهِ

مِنَ الخَـلاَئِقِ مِنْ مَثْنَى وَمِنْ وَحَـدِ

مِنْ كُلِّ جِـنْسٍ بَرَا أَصْنَافَـهُ وَذَرَا

أَشْـبَـاحَـهُ بَيْنَ مَكْسُـوٍّ وَمُنْجَـرِدِ

فِيـهَا المَلاَئِكُ بِالتَّسْـبِيحِ خَاضِـعَةٌ

لا يَسْـأَمُـونَ لِـطُوْلِ الدَّهْرِ وَالأَمَـدِ

وَصَيَّـرَ المَوْتَ فَوْقَ الخَلْقِ لاَ لَـجَأً

مِـنْـهُ وَلاَ هَـرَبٌ مِنْـهُ إِلَـى سَـنَـدِ

فَـالْكُـلُّ مَـيْتٌ وَكُلٌّ هَالِـكُونَ خَـلاَ

وَجْـهِ الإِلَهِ الكَرِيمِ الدَّائِمِ الصَّـمَـدِ

أَفْنَى القُـرُونَ وَأَفْنَى كُلَّ ذِي عُمُـرٍ

كَـعُـمْـرِ نُوحٍ وَلُقْـمَـانٍ أَخِي لَبَـدِ

يَا رَبِّ إنَّكَ ذُو عَـفْـوٍ وَمَـغْـفِـرَةٍ
فَنَجِّـنَا مِنْ عَـذَابِ المَوْقِفِ النَّكِدِ

وَاجْـعَلْ إلَى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ مَـوْئِلَنَا
مَعَ النَّـبِـيِّـينَ وَالأبْـرَارِ فِـى الخُـلْـدِ

سُـبْحَـانَ رَبِّـكَ رَبِّ العِـزِّ مِنْ مَلِـكٍ
مَنِ اهْتَدَى بِهُـدَى رَبِّ العَالَمِينَ هُدِى

***

الواعظ

يقول سبحانه :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(١) .

لقد جعل الله سبحانه من وسائل الدعوة إليه : الموعظة الحسنة .

ويقول تعالى عن القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٢) .

ويقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾(٣) .

ويقول تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾(٤) .

فالقرآن الكريم موعظة من الله لعباده ، وهو سبحانه يعظ عباده بالقرآن الكريم .

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سورة المائدة : ٤٦ .

(٣) سورة يونس : ٥٧ .

(٤) سورة البقرة : ٢٣١ .

ولقد حثَّ الله سبحانه على الوعظ ، بل حثَّ على الوعظ حتى فى الحالات التى لا أمل فيها ، وجعل الوعظ فى هذه الحالات معذرة إليه سبحانه ، وإنه يقول :

﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(١) .

ولقد وعظ القرآن بالقصص ، وتضمَّن القصص القرآنى الكثير من المواعظ ، وبيَّن الكوارث التى حاقت بالأمم التى لم تستجب للموعظة فى تصحيح العقيدة ، أو التى لم تستجب للموعظة فى التزام مكارم الأخلاق :

- لقد أغرق الله قوم نوح لشرْكهم .
- ودمَّر قوم لوط لشذوذهم .
- وخسف بقارون لرجْسه .
- وأباد قوم شعيب ؛ لأنهم طفَّفوا الكَيْل والميزان وبَخَسُوا الناس حقوقَهم .

ويقول سبحانه عن القصص القرآنى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾(٢) .

وأحسن القصص هو القصص الملىء بالحكمة والعظَة والعبَر .

ولكن القرآن وعظ - أيضاً - بالأسلوب المباشر ، ومَواعظهَ فى هذا المجال كثيرة مستفيضة :

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٤ .	(٢) سورة يوسف : ٣ .

إن القرآن موعظة . .

والوعظ قسم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو جزء من الجهاد فى سبيل الله . .

ومن أجل ذلك اهتم الصوفية به ، فكانوا وُعَّاظاً بألسنتهم ، وكانوا وُعَّاظاً بسَمْتِهم ، وكانوا وُعَّاظاً بسلوكهم ، وكانت حياتهم وَعْظاً وهداية للآخرين .

ولقد استفاض ذو النون فيما يتعلَّق بالوعظ ، وكانت له مواعظ بلغت فى السموِّ حداً بعيداً ، وفيما يأتى بعض مواعظه :

« مَنْ نظرَ فى عيوب الناس عَمِىَ عن عيوب نفسه ، ومَنْ عُنِىَ بالفردوس والنار شُغِلَ عن القِيل والقَال ، ومَنْ هربَ من الناس سَلِمَ من شرِّهم ، ومَنْ شكرَ زِيدَ له » .

وقال :

« حقيقةُ السخاء ألاَّ تلوم البخيل فى منعه إيَّاك يوماً ، لأنك إن لُمْتَهُ واشتغلتَ به ، فذلك لوقوع ما منعك فى قلبك ، ولو هان ذلك عليك لم تشتغل بلومه » . . ثم أنشأ يقول :

كَرِيمٌ كَصَفْوِ المَاءِ لَيْسَ بِبَاخِلٍ   بِشَيْءٍ وَلاَ مُهْدٍ مَلاَماً لِبَاخِلِ

وأوصى رجلاً فقال له :

« لا تكنْ خَصْماً لنفسك على ربك تستزيد فى رزقك وجاهك ، بل كنْ خصماً لربك على نفسك ؛ فإنه لا يجتمع معها عليك .. ولا تَلْقَيَنَّ أحداً بعينِ الازدراء والتصغير ـ ولو مشركاً ـ خوفاً من عاقبتيكما ؛ فلعلك تُسْلَبُ المعرفة ويُرْزَقُهَا » .

وقال :

« مَنْ تقرَّب إلى الله بما فيه تَلَفُ نَفْسِهِ ؛ حَفِظَها عليه » .

وقال :

« الصدقُ سيفُ الله ، ما وُضِعَ على شيء إلا قَطَعَهُ » .

وقال :

« لا تشغلنَّك عيوبُ الناس عن عيوبِ نفسك فلستَ عليهم برقيب » .

وقال :

« الحسد داء لا يبرأ ، وحَسْبُ الحسود من الشر ما يلقاه » .

وقال :

« مَنْ قَنَعَ استراحَ من أهل زمانه ، واستطالَ على أقرانه » .

وقال :

« يأتي زمانٌ تكون الدولة فيه لأهل الدنيا على أهل الآخرة ».

وقال :

« العاقل يعترف بذنبه، ويجود بما لديه، ويزهد فيما عنده ، وَيَكُفُّ أذاه ، ويتحمَّل أذى غيره » .

وقال :

« الكَيِّسُ من بَادَرَ بعمله ، وسَوَّف بأَمَلِهِ ، واستعدَّ لأجَلِهِ » .

وقال :

« كيف أفرح بعملي ، وذنوبي مزدحمة ؟! .. أم كيف أفرح بعملي ، وعاقبتي مُبْهَمَة ؟! » .

وقال :

« العِزُّ الذي لا ذُلَّ فيه : سكوتُك عن السفيه .. عَطَبُ السفيه بيده وفيه » .

وقال فى ختام كلامه يوماً :

« وَلِمَ لا تذوب أبدانُ العُمَّال وتذهلُ عقولهم ، والعَرْضُ على الله أمامهم ، وقراءة كتبهم بين أيديهم ، والملائكة وقوفٌ بين يدى الجبَّار ينتظرون أمره فى الأخيار والأشرار ؟! » . .

ثم قال :

« مَثِّلوا هذا فى نفوسهم ، وجعلوه نُصْبَ أعينهم » .

وقال :

« قلوب أهل الهوى سجون البلاء .. فإذا أراد الله أن يعذِّب البلاء حبسه فى قلوب أهل الهوى، فيصيح إلى الله بالاستغاثة والخروج من قلوب أهل الهوى » .

وقال :

« طُوبَى لمن تطهَّر ولَزِمَ الباب .. طُوبَى لمن تَضَمَّر للسباق .. طُوبَى لمن أطاع الله أيام حياته » .

وقال :

« حَقُّ الجليس أن تَسُرَّه ، فإن لم تَسُرَّه فلا تَسُؤْهُ ، لم يكسبْ محبةَ الناس فى هذا الزمان إلا رجلٌ خَفَّفَ المئونة عليهم ، وأحسنَ القول فيهم وأطابَ العشرة معهم » .

وقال له رجل : أوصنى . .

فقال :

« بِمَ أُوصيك ؟ .. إنْ كنتَ ممن قد أُيِّدَ منه فى علم الغيب بصدق التوحيد، فقد سبق لك ـ من قبل أن تُخلق إلى يومنا هذا ـ دعاء النبيين والمرسلين والصِّدِّيقين ، وذلك خير لك من وصيَّتى لك ، وإنْ يكنْ غيرَ ذلك فلن ينفعك النداء » .

وعن أحمد بن الحسن الزاهد، قال :

كان مكتوباً على عكاز ذى النون :

« لا يومك ينساك .. ولا رزقك يَعْدُوك .. ومن يرغبْ إلى الناس يكنْ للناس كالمملوك » .

وقال ذو النون :

« إذا اطَّلع الخبير على الضمير ، فلم يجد فى الضمير غير الخبير : جعل فيه سراجاً منيراً » .

وقال :

« من المحال أن يَحْسُنَ الظَّنُّ ولا يَحْسُنَ مِنْهُ المَنُّ» .

وقال :

« كيف أفرح بعملي ، وذنوبى مزدحمة ؟! .. أم كيف أفرح بعملى ، وعاقبتى مبهمة ؟! » .

وقال :

« ما أخاف عليكم مَنْعَ الإجابة ، إنما أخاف عليكم مَنْعَ الدعاء » .

وسأله رجل فقال :

ـ رحمك الله . . ما الذى أنْصَبَ العباد وأضناهم ؟

فقال :

« ذكْرُ المقام ، وقلَّةُ الزاد ، وخَوْفُ الحساب » .

وقَال أبو عصمة :

كنت عند ذى النون ، وبين يديه فتى حسن يُملى عليه شيئاً ، قال : فمرَّت امرأة ذات جَمَال وخَلْق ، قال : فجعل الفتى يسارق النظر إليها . . قال : ففَطِنَ ذو النون فَلَوَى عُنُقَ الفتى ، وأنشأ يقول :

دَعِ المَصُوْغَاتِ مِنْ مَاءٍ وَطِيْنٍ   واشْغَلْ هَوَاكَ بِحُـوْرٍ عِيْنٍ

وقال :

« مَنْ وجدَ خمس خصال:رجوتُ له السعادة، ولو قبل موته بساعة: استواء الخلق، وخِفَّة الروح ، وغزارة العقل ، وصفاء التوحيد ، وطِيْب المولد » .

وقال ذو النون :

« إن لله خالصةً من عباده ، ونُجباءَ من خَلْقه ، وصفوةً من بريَّته ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، وأرواحهم في الملكوت معلَّقة ، أولئك نُجباءُ الله من عباده ، وأُمَنَاءُ الله في بلاده ، والدعاة إلى معرفته ، والوسيلة إلى دينه.

هَيْهَات .. بَعُدوا وفاتوا ، ووَارَتْهم بطونُ الأرض وفجاجُها .. على أنه لا تخلو الأرض مِنْ قائمٍ فيها بحُجَّته على خَلْقه : لئلاَّ تبطلَ حُجَجُ الله » .

ثم قال :

« وأين ؟ .. أولئك قوم حَجَبَهُم الله عن عيون خَلْقه ، وأخفاهم عن آفات الدنيا وفِتَنِهَا ، ألا وهم الذين قطعوا أودية الشكوك باليقين ، واستعانوا على أعمال الفرائض بالعلم ، وهربوا من وحشة الغفلة ، وتَسَرْبَلُوا بالعلم لاتِّقَاء الجهالة ، واحتجزوا عن الغفلة بخوف الوعيد، وجَدُّوا في صدق الأعمال لإدراك الفَوْت ، وخَلَوا من مطامع الكذب ومعانقة الهوى ، وقطعوا عُرَى الارتياب بروح اليقين ، وجاوزوا ظُلَمَ الدُّجَى ، ودَحَضُوا حُجج المبتدعين باتِّباع السنن، وبادروا إلى الانتقال

عن المكروه قبل فوات الإمكان ، وسارعوا في الإحسان تعويضاً عن الإساءة ، وَلاَقَوا النعم بالشكر ؛ استجلاباً لمزيده ، وجعلوه نُصْبَ أعينهم عند خواطر الهَمِّ وحركات الجوارح ، من زينة الدنيا وغرورها ، فزهدوا فيها عياناً ، وأكلوا منها قصداً ، وقدموا فضلاً وأحرزوا ذخراً ، وتزوَّدوا منها بالتقوى ، وشَمَّروا في طلب النعيم بالسير الحثيث ، والأعمال الزكية ، وهم يظنون .. بل لا يشكُّون أنهم مقصِّرون ، وذلك أنهم عَقَلوا فعرفوا ، ثم اتَّقَوْا ، وتفكَّروا فاعتبروا ؛ حتى أبصروا ، فأمسكوا ألسنتهم عن الكلام من غير عِيٍّ خوفاً من التزيُّن فيسقطوا من عين الله ، فأمسكوا مع عقول صحيحة ، ويقين ثابت ، وقلوب شاكرة ، وألسنٍ ذاكرة ، وأبدانٍ صابرة ، وجوارحَ مطيعة.

أهل صدق ونصح ، وسلامة وصبر ، وتوكُّل ورضاً وإيمان .

عَقلوا عن الله أمره، فشغلوا الجوارح فيما أُمروا به من طاعة وذكر وحياء وقطعوا الدنيا بالصبر على لزوم الحق، وهجروا الهوى بدلالات العقول ، وتمسَّكوا بحكم التنزيل وشرائع السنن، ولهم في كل إشارة منها دمعة ولذة، وفكرة وعبرة، ولهم مقام على المزيد للزيادة ، فرحمة الله علينا وعليهم وعلى جميع المؤمنين والصالحين » .

قال : وسمعت ذا النون يقول :

« إيَّاك أن تكون في المعرفة مُدَّعِياً ، وتكون بالزهد محترفاً ، وتكون بالعبادة متعلِّقاً » .

فقيل له : يرحمك الله ، فَسِّرْ لنا ذلك .

فقال :

« أمَا علمتَ أنك إذا أشرت في المعرفة إلى نفسك بأشياء وأنت مُعَرّى من حقائقها كنتَ مدَّعياً ، وإذا كنت في الزهد موصوفاً بحالة وبك دون الأحوال كنت محترفاً ، وإذا علَّقت بالعبادة قلبك وظننت أنك تنجو من الله بالعبادة، لا بالله ، كنت بالعبادة متعلّقاً لا بولِيِّها والمَنَّان عليك » .

وعن الشمشاطى ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« أوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - :

يا موسى، كنْ كالطير الوحداني يأكل من رءوس الأشجار، ويشرب من الماء القَرَاح ، إذا جَنَّه الليل أوَى إلى كهف من الكهوف ، استئناساً بي ، واستيحاشاً ممن عصاني.

يا موسى ، لأقطعنَّ أمل كل مؤمل يؤمل في غيرى ، ولأقصمنَّ ظهر من يستند إلى سواى، ولأطيلنَّ وحشة من استأنس بغيرى، ولأُعرضنَّ عمن أحب حبيباً سواى.

يا موسى ، إنَّ لي عباداً إنْ ناجوني أصغيتُ إليهم ، وإنْ نادوني أقبلتُ عليهم ، وإنْ أقبلوا عليَّ أدنيتهم ، وإنْ دنوا مني قرَّبتهم ، وإنْ تقرَّبوا مني اكتنفتهم ، وإنْ وَالوني وَالَيْتُهم ، وإنْ صافوني صافيتهم ، وإنْ عملوا لي جازيتهم.

هم في حِمَاى ، وبي يفتخرون ، وأنا مدبِّرٌ أمورهم ، وأنا سائس قلوبهم ، وأنا متولٍّ أحوالهم، لم أجعل في قلوبهم راحة في شيء إلا في ذكرى ، فذكرى لأسقامهم شفاء ، وعلى قلوبهم ضياء ، لا يستأنسون إلا بي ، ولا يحطون رحال قلوبهم إلا عندى ، ولا يستقر قرارهم في الإيواء إلا إليَّ » .

ثم قال ذو النون :

« هُمْ - يا أخي - قوم قد ذَوَّبَ الحزن أكبادهم ، وأنْحَلَ الخوفُ أجسامَهم ، وغيَّر السهرُ ألوانَهم ، وأقلقَ خوفُ البعثِ قلوبهم ... قد سكنتْ أسرارهم إليه ، وتذلَّلتْ قلوبهم عليه ، فنفوسهم عن الطاعة لا تَسْلُو ، وقلوبهم عن ذكره لا تَخْلو، وأسرارهم في الملكوت تعلو.

الخشوع يخشع لهم إذا سكتوا ، والدموع تخبر عن خَفِيِّ حُرْقتهم إذا كمدوا ، قد نسوا مرح الشهوات بحلاوة المناجاة ، فليس للغفلة عليهم مَدْخَلٌ ، ولا للَّهو فيهم مَطْمَعٌ ، قد حجب التوفيق بينهم وبين الآفات ، وحالت العصمة بينهم وبين اللذَّات ، فيا طُوْبَى للعارفين ، ما أغنى عيشهم ، وما ألذَّ شربهم ، وما أجَلَّ حبيبهم » .

وقال ذو النون :

« إن لله خالصة من عباده ، ونجباء من خَلْقه ، وصفوة من بريَّته ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، وأرواحهم في الملكوت معلَّقة .. أولئك نجباء الله من عباده ، وأمناء الله في بلاده ، والدعاة إلى معرفته ، والوسيلة إلى دينه.

هَيْهَات .. بَعُدوا وفاتوا ، وَوَارَتْهُم بطونُ الأرض وفِجَاجُها .. على أنه لا تخلو الأرض مِنْ قائمٍ فيها بحُجَّته على خَلْقه ؛ لئلاً تبطلَ حُجج الله » .

ثم قال :

« وأين ؟! .. أولئك قوم حَجَبَهُمُ الله عن عيون خَلْقه ، وأخفاهم عن آفات الدنيا وفتنها ، ألاَ وهم الذين قطعوا أودية الشكوك باليقين ، واستعانوا على أعمال الفرائض بالعلم ، وهربوا من وحشة الغفلة ،

وتَسربلوا بالعلم لاتِّقاء الجهالة، واحتجزوا عن الغفلة بخوف الوعيد، وجَـدُّوا في صـدق الأعـمال لإدراك الفَـوْت ، وخلوا عـن مطامع الكذب ومعانقة الهوى ، وقطعـوا عُرَى الارتياب بروح اليقين ، وجاوزوا ظلم الدُّجى، ودحضوا حجج المبتـدعين باتباع السنن ، وبادروا إلى الانتقال عن المكروه قبل فَـوْت الإمكان ، وسارعـوا في الإحسان : تعـويضاً عن الإسـاءة ، ولاقوا النعـم بالشكر ؛ استـجـلاباً لمزيده ، وجـعلوه نُصْبَ أعينهم عند خواطر الهمم وحركات الجوارح من زينة الدنيا وغرورها ، فزهدوا فيها عياناً ، وأكلوا منها قـصدًا ، وقدموا فضلاً وأحرزوا ذخراً ، وتزوَّدوا منها بالتـقوى ، وشمَّـروا في طلب النعيم بالسيـر الحـثيث ، والأعمال الزكية ، وهم يظنون .. بل لا يشكُّون أنهم مقصِّرون ، وذلك أنهم عَقَـلوا فعرفـوا ، ثم اتقوا وتفكَّروا ، فـاعتـبروا ؛ حـتى أبصروا ، فأمْسَكوا ألسنتهم عن الكلام من غير عِيٍّ خوفاً من التزيُّن فيسقطوا من عين الله ، فأمسكوا مع عقول صحيحة ، ويقين ثابت ، وقلوب شاكرة ، وألسن ذاكرة ، وأبدان صابرة ، وجوارح مطيعة.

أهل صدق ونصح ، وسلامة وصبر، وتوكُّل ورضاً وإيمان.

عقلوا عن الله أمره فشغلوا الجوارح فـيما أُمروا به من طاعة وذكر وحـياء ، وقطعـوا الدنيا بالصبـر على لزوم الحق ، وهجروا الهـوى بدلالات العقول ، وتمسَّكوا بحكم التنزيل وشرائع السنن ، ولهم في كل إشارة منها دمعة ولذة، وفكرة وعبرة ، ولهم مقام على المزيد للزيادة ، فرحمة الله علينا وعليهم وعلى جميع المؤمنين والصالحين » .

وقال ذو النون :

« معاشرة العارف كمعاشرة الله: يَحْتَمِلُ عنكَ، ويَحْلُمُ عليكَ، تخلُّقاً بأخلاق الله الجميلة » .

وقال :

« **أهل الذِّمَّة يُحملون على الحال المحمودة والمباح من الفعل ، فما الفرق بين الذِّمِّي والحنيفي ؟.. الحنيفي أَوْلَى بالحِلْم والصَّفْح والاحتمال** » .

وعن غيلان المذكر ، قال :

« **أخبرني ذو النون أن الناس على ثلاثة مقامات في الدنيا:**

* **قوم اشتغلوا بمعادهم عن معاشهم.**

* **وقوم اشتغلوا بمعاشهم ومعادهم.**

* **وقوم اشتغلوا بمعاشهم عن معادهم.**

- **فأما من اشتغل بمعاشه عن معاده فمقامه مقام الهالكين.**

- **وأما من اشتغل بهما فمقامه مقام المخلصين.**

- **وأما من اشتغل بمعاده عن معاشه فهو من العارفين** » .

وعن يوسف بن الحسين ، قال : سمعت ذا النون يقول :

« **لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه ، بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته، ولو قال لك: اعمل ما شئت فلستُ آخذك بذنب . كان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياء منه ، وتركاً لمعصيته ، إن كنت حراً كريماً عبدًا شكوراً ، فكيف وقد حذَّرك ؟!** » .

وعن سليم بن موسى ، قال : قال ذو النون :

« **إن حقوق الله أثقل من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العادُّ ، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين** » .

وقال ذو النون :

« الدنيا دَنِيَّة، وحبها خطيَّة ، والدُّنُوُّ منها بَلِيَّة..الدنيا يكفى صِفَتُها مِنْ وَصْفِها ، وإنما يَعتبر بها مَنْ عَرفَها .. مَنْ طلبَ الدنيا سَبقتْه ، ومَنْ هَربَ منها لحقتْه ، ومَنْ عصى الدنيا أطاعتْه ، ومَنْ أطاعها عَصَتْه .. الدنيا فاعلةٌ بك ما فعلتْ بأبيك ، وزائلة عنك كما زالتْ عن أخيك » .

وقال يوسف :

قلت لذى النون فى وقت مفارقتى له :

ـ مَنْ أجالس؟

قال :

« عليك بصحبة مَنْ تُذكِّرك بالله رؤيتُه .. وتقع هيبتُه على باطنك .. ويزيد فى عملك مَنْطقُهُ .. ويزهِّدك فى الدنيا عَمَلُه .. ولا يعصى الله ما دمتَ فى قُربه .. يَعِظُكَ بلسانِ فِعْلِهِ .. ولا يَعِظُكَ بلسانِ قَوْلِهِ » .

* * *

الحكيم

لقد تحدث القرآن الكريم عن الحكمة، وبيّن سبحانه أنه:

﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ** ﴾(١).

﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾(٢).

ولقد آتى الله الحكمة داود عليه السلام:

﴿ **وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** ﴾(٣).

وآتى الله الحكمة آل إبراهيم ..

وآتى الله سبحانه محمداً ﷺ الحكمة، وجعل شطر رسالته تعليم الحكمة:

﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾(٤).

ولقد ذكر الله سبحانه أمثلة للحكمة، منها بعض ما أوحاه الله إلى محمد ﷺ، وقال في نهايته:

﴿ **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ** ﴾(٥).

(١، ٢) سورة البقرة: ٢٦٩.
(٣) سورة البقرة: ٢٥١.
(٤) سورة آل عمران: ١٦٤.
(٥) سورة الإسراء: ٣٩.

إنه سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ

مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾(١) .

ومنها ـ كمثال ـ بعض ما آتاه لقمان قائلاً :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(٢) .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٣) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾(٤) .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٣٩ .

(٢) سورة لقمان : ١٢ .

(٣) سورة لقمان : ١٣ .

(٤) سورة لقمان : ١٤ .

(٥) سورة لقمان : ١٥ .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[1] .

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[2] .

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[3] .

وإننا إذا تروَّينا فيما ذكره الله سبحانه من الحكمة ؛ وجدنا أنها مبادئ فى العقيدة أصفى ما تكون العقيدة ، ومبادئ فى الأخلاق أكرم ما تكون الأخلاق .

تتضمن الحكمة - إذن - الصدق عقيدة وأخلاقاً ، وأن كل ما يساير الدين الصحيح فى العقيدة والأخلاق هو من الحكمة .

وكلما استغرق الإنسان فى الجو القرآنىّ وفى الجو السلوكىّ للرسول ﷺ ، ثم تحدَّث فى العقائد وفى الأخلاق مستمداً من القرآن والسُّنَّة وملتزماً لأنوارهما ، فإنه ينطق فى إطار الحكمة .

والصوفية لما لهم من صحبة طويلة للقرآن ، واقتداء مستمر برسول

---

(١) سورة لقمان : ١٦ .

(٢) سورة لقمان : ١٧ .

(٣) سورة لقمان : ١٨ ، ١٩ .

الله ﷺ ، ولما في قلوبهم من نور القرآن وهَدْى السُّنَّة ، فإن كلماتهم تشتمل على كثير من ألوان الحكمة .

ونذكر لذى النون ما يأتى :

قال ذو النون : قال الحسن :

« **ما أخاف عليكم مَنْعَ الإجابة ، وإنما أخاف عليكم مَنْعَ الدعاء** » .

وقال ذو النون :

« **ليس بعاقلٍ مَنْ لم يُنْصَفْ مِنْ نفسه وطَلَبَ الإنصافَ مِنَ الناس** » .

وقال :

« **كل مُطيعٍ مُستأنسٌ، وكل عاصٍ مُسْتَوحشٌ، وكل محبٍّ ذليلٌ ، وكل خائف هاربٌ ، وكل راجٍ طالبٌ** » .

وسُئل ذو النون : ما سبب الذنب ؟

قال :

« **اعقلْ ـ وَيْحَكَ ـ ما تقول، فإنها من مسائل الصِّدِّيقين.. سبب الذنب النظرة ؛ ومن النظرة الخَطْرة.. فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله؛ ذهبتْ .. وإن لم تتداركها امتزجتْ بالوساوس : فتتولد منها الشهوة .. وكل ذلك ـ بعد ذلك ـ باطن لم يظهر على الجوارح .. فإن تداركت الشهوة ؛ وإلا تولَّد منها الطلب . . فإن تداركت الطلب؛ وإلا تولَّد منه الفعل** » .

وقال :

« **مَنْ عَرَفَ قَدْرَ الدنيا كلها لم يكنْ للدنيا عنده قَدْر** » .

وقال :

« **لم يزلِ المنافقون يَسخرون بالفقراءِ في كلِّ عصر** » .

وقال سعيد بن الحكم :

سئل ذو النون : مَنْ أدومُ الناس عناءً ؟

قال :

« أسوؤهم خُلقاً » .

قيل : وما علامة سوء الخُلُق ؟

قال :

« كثرة الخلاف » .

قال : وسمعت ذا النون يقول :

سئل جعفر بن محمد عن السَّفْلة ، فقال :

« مَنْ لا يبالي ما قال ولا ما قِيلَ فيه » .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون يقول :

« مَنْ تزيَّن بعمله كانت حسناته سيئات » .

قال : وسمعت ذا النون يقول :

« أدنى منازل الأنس أن يُلْقَى في النار فلا يغيب هَمُّه عن مأموله » .

وقال نصر بن أبي نصر : قال ذو النون :

« الخوف رقيب العمل ، والرجاء شفيع المحن » .

وسئل ذو النون : ما أَخْفَى الحجاب وأشدُّه ؟

قال :

« رؤية النفس وتدبيرها » .

وقال إسحاق بن إبراهيم الخوَّاص : سمعت ذا النون يقول :

« مَنْ أدركَ طريق الآخرة ؛ فليكثرْ مساءلة الحكماء ومشاورتهم .. وليكنْ أول شيء يسأل عنه : العقل .. لأن جميع الأشياء لا تُدرك إلا بالعقل .. ومتى أردتَ الخدمة لله فاعقلْ لِمَ تخدم ؟ ثم اخدمْ » .

وقال ذو النون :

« حرَّم الله الزيادة في الذوق ، والإلهام في القلب ، والفراسة في الخُلُق، على ثلاثة نفر: على بخيل بدنياه، سخيٍّ بدينه، سيِّئ الخُلُق مع الله » .

فقال له رجل : صِفْ لنا سيِّئ الخُلُق مع الله .

فقال :

« يقضي الله تعالى قضاء، ويُمضي قدرًا،وينفذ علماً،ويختار لعبده أمرًا ، فترى صاحب سوء الخُلُق مع الله مضطرب القلب في ذلك كله ، غير راضٍ به ، وإنما شكواه من الله إلى خَلْقه ، فما ظنك ؟ » .

وقال ذو النون :

« مفتاحُ العبادة الفكرة ، وعلامةُ الهوى متابعة الشهوات ، وعلامةُ التوكُّل انقطاع المطامع » .

وقيل لذي النون : متى يأنس العبد بربه ؟

قال :

« إذا خافه أنِسَ به، وإنما علمتم أنه مَنْ وَاصَلَ الذنوبَ نُحِّيَ عن باب المحبوب » .

وقال :

« مَنْ عَمِيَ عن عيوب نفسه ؛ انكشفتْ له عيوبُ الناس ؛ فَمَقَتَتْهُ القلوب » .

وقال :

« ما أعزَّ الله عبدًا بعزٍّ هو أعزُّ له من أن يدله على ذلّ نفسه، وما أذلّ الله عبداً بذُلٍّ هو أذلُّ له من أن يحجبه عن ذلّ نفسه » .

وقال :

« ليس بعاقل مَنْ تعلَّمَ العلمَ فعرف به ، ثم آثر ـ بعد ذلك ـ هواه على عمله .. وليس بعاقل مَنْ طلبَ الإنصافَ من غيره لنفسه ، ولم ينصف مِنْ نفسه غيرَه .. وليس بعاقل مَنْ نَسِيَ اللهَ فى طاعته ، وذكر الله تعالى فى مواضع الحاجة إليه » .

وقال :

« مَنْ وثقَ بالمقادير استراحَ، ومَنْ تقرَّبَ قُرِّبَ، ومَنْ صفَا صُفِيَ له» .

وعن يوسف بن الحسين ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« أنت ملكٌ مقتدِر ، وأنا عبدٌ مفتقِر .. أسألك العَفْوَ تذللاً ، فأعطنيهِ تفضُّلاً » .

وقال ذو النون :

« كيف أفرح بعملى ، وذنوبى مزدحمة ؟! .. أم كيف أفرح بأملى ، وعاقبتى مبهمة ؟ ! » .

وقال :

« قد غفلت القلوبُ عنه وهو مُنشيها ، وأدبرت النفوسُ عنه وهو يناديها : فسبحانه .. ما أمهلَهُ للأنامَ مع تواتر الآلاء والإنعام !! » .

وقال :

« طُوبَى لعبد أنصف ربه ، أقرَّ له بالآفات فى طاعته ، وبالجهل فى معصيته ، فإن آخذه بالذنوب رأى عدله ، وإن غفر رأى فضله » .

وعن محمد بن أحمد بن سلمة النيسابورى ، قال :
سمعت ذا النون يقول :
« **يا خراساني ، احذرْ أن تنقطع عنه فتكون مخدوعاً** » .
قلت : وكيف ذلك ؟
قال :
« **لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه ، فينقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه** » .
ثم قال :
« **تعلَّقَ الناسُ بالأسباب ، وتعلَّقَ الصِّدِّيقون بولىِّ الأسباب** » .
ثم قال :
« **علامة تعلُّق قلوبهم بالعطايا : طلبهم منه العطايا ، ومن علامة تعلُّق قلب الصِّدِّيق بولىِّ العطايا : انصباب العطايا عليه وشغله عنها به** » .
ثم قال :
« **ليكن اعتمادُكَ على الله فى الحال ، لا على الحال مع الله** » .
ثم قال :
« **اعقلْ ، فإن هذا من صفوة التوحيد** » .
وقال :
« **من أعلام الإيمان : اغتمامُ القلب بمصائب المسلمين ، وإرشادُهم إلى ما فيه مصالحهم وإنْ كرهوه** » .
وكان يقول :
« **إن الله ـ تعالى ـ أنطقَ اللسانَ بالبيان ، وافتتحه بالكلام ، وجعل**

القلوبَ أوعيةٌ للعلم .. ولولا ذلك كان الإنســان بمنزلة البهيمة ؛ يُومئ بالرأس ويشير باليد » .

وقال :

« مَنْ راقبَ العواقبَ سَلِم » .

وقال :

« منْ علامة سخط الله تعالى على العبد خَوْفُه مِنَ الفقر » .

وقال :

« مَنْ نَظَرَ فى عيوب الناس عَمِىَ عن عيب نفسه » .

وقال :

« صُدور الأحرار قُبور الأسرار » .

وقال :

« إنما أَحَبَّ الناسُ الدنيا لأنه تعــالى جعلها خزانةَ أرزاقــهم ؛ فمدُّوا أعينهم إليها » .

وسئل ذو النون : ما الذى أنْصَبَ العباد وأضناهم ؟

قال :

« ذِكْرُ المقام ، وقلَّةُ الزاد ، وخَوْفُ الحساب » .

وقال :

« المتصنِّع يُبْـدِى غير الذى هو به .. والصــادق لا يبالى على أىِّ جنب وقع » .

وقال :

« ما هَلَكَ مَنْ هَلَكَ إلا بطلبِ أمرٍ قد أخفاه أو إنكارِ أمرٍ قد أبداه » .

وقال :

« الأُنس بالله نورٌ ساطع ، والأُنس بالناس غَمٌّ واقع » .

فقيل له : ما الأنس بالله ؟

قال :

«العلْم والقرآن» .

وكان ﷺ يقول :

« إن الله ـ تعالى ـ لم يمنع أعداءه الجنة بخلاً.. وإنما صَانَ أولياءه الذين أطاعوه أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه » .

وقال :

« مفتاحُ العبادةِ الفكرةُ ، وعلامةُ الإصابةِ مخالفةُ النفسِ والهَوَى » .

وكان ﷺ يقول :

« تواضعْ لجميع خَلْق الله تعالى .. وإيَّاك أن تتواضع لمن يسألك أن تتواضع له ؛ فإن سؤاله إيَّاك يدل على تَكَبُّرِهِ في الباطن .. وتواضعك له يكون له عونًا على التكبُّر » .

وقال :

« لا تتواضعْ لمتكبِّر ، فتذلَّ نفسك في غير محلٍّ ، وتُكَبِّر نفسه بغير حق » .

وقال :

« إنما يُختبر ذو البأس عند اللقاء ، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، وذو الأهل والولد عند الفاقَةِ والبلاء ، والإخوان عند نَوَائِبِ القضاء » .

وقال :

« لم يكسبْ محبةَ الناس ـ في هذا الزمان ـ إلا رجلٌ خَفَّفَ المئونة عليهم ، وأحسنَ القولَ فيهم ، وأطابَ العشرةَ معهم » .

وقال :

« مِنْ علامة سخط الله على العبد أن يخافَ الفقر » .

ومن حكمه :

لَبِسْتُ بِالفِقْهِ ثَوْبَ الغِنَى   فَصِرْتُ أَمْشِي شَامِخَ الرَّأسِ

وقال :

« لا تسكن الحكمةُ معدةً مُلِئَتْ بالطعام » .

وقال :

« الكريم يُعْطِي قبل السؤال فكيف يبخلُ بعدَه ، ويعذرُ قبل الاعتذار فكيف لا يعذر بعده ؟ » .

وقال :

« مِنَ المُحَالِ أنْ يَحْسُنَ الظَّنُّ ولا يَحْسُنَ منه المَنُّ » .

وقال :

« مِنَ القلوبِ قلوبٌ تستغفرُ قبلَ أنْ تُذْنِبَ ؛ فيُتابُ عليها قبلَ أنْ تتوبَ » .

وقال :

« سيأتى على الناس زمانٌ تكون الدولة فيه للحَمْقَى على الأَكْيَاس» .

قال أبو نعيم :

والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله ـ تعالى ـ الأمانى ، والكيِّس مَنْ دَانَ نفسه وعملَ لما بعد الموت .

وقال :

« إذا صَحَّ اليقينُ فى القلب صَحَّ الخوفُ فيه » .

وقال :

« أكثرُ الناس إشارةً إلى الله فى الظاهر : أبعدُهم من الله .. وأرغبُ الناس فى الدنيا وأخفاهم لها طلبًا : أكثرُهم ذمًا لها عند طلابها » .

وقال :

« الاستئناسُ بالناسِ من علامةِ الإفلاس » .

وقال :

« مَنْ عَرَفَ ربه وجدَ طعمَ العبودية ولذة الذكر والطاعة ، فهو بينَ الخَلْق ببدنه ، وقد نَاءَ عنهم بالهموم والخَطَرات » .

وسأل رجل ذا النون : مَنْ أصحبُ مِنَ الناس ؟

قال :

« مَنْ سَقَطَ بينك وبينه صورةُ التحفُّظ ، ومَنْ إذا أذنب تاب ، وإذا مرضتَ عَادَك ، ومَن يعلم منك بعض ما يعلمه الله منك ، فتأمنه على ذلك ويستره عليك » .

وسئل يوماً : فِيمَ يجد العبد الخلاص ؟

قال :

« الخَلاَصُ فى الإخْلاَص ، فإذا أَخْلَصَ تَخَلَّص » .

فقيل : فما علامة الإخلاص ؟

قال :

« إذا لم يكنْ فى عملك صحبةُ المخلوقين ، ولا مخافةُ ذَمِّهم : فأنت مُخْلِصٌ إن شاء الله تعالى » .

وقال ذو النون :

« إن سكتَّ عَلِمَ ما تريد، وإن نطقتَ لم تنل بنطقك ما لا يُريد، وعِلْمُهُ بمرادك ينبغي أن يغنيك عن مسألته ، أو ينحِّيك عن مطالبته » .

وقال :

« إن الطبيعة النقية هي التي تكفيها من العظة رائحتُها ومن الحكمة إشارةٌ إليها » .

وقال :

« أكثر الناس هَمًّا أسْوَؤُهم خُلقاً » .

وسئل ذو النون : مَنْ أدومُ الناس عناء ؟

قال :

« أسْوَؤُهم خُلقًا » .

قيل : وما علامة سوء الخُلُق ؟

قال :

« كثرة الخلاف » .

وقال ذو النون :

« دارتْ رَحَى الإرادة على ثلاث :

على الثقة بوَعْد الله ، والرضا ، ودوام قَرْع باب الله » .

وقال :

« حَقُّ الجليسِ أن تَسُرَّه ، فإن لم تَسُرَّهُ فلا تَسُؤْهُ » .

وقال :

« بصحبة الصالحين تطيبُ الحياة .. والخير مجموع فى القَرِين الصالح : إنْ نسيتَ ذَكَّرك ، وإنْ ذكرتَ أعانك » .

وكان يقول :

« كنا إذا سمعنا شاباً يتكلَّم بالمجلس أيِسْنا مِنْ خيره » .

وقال :

« اعلمْ أن أعمال الجوارح يصدِّقها عقدُ ضمائر القلوب ..

وقد قال رسول الله ﷺ :

« فى ابن آدم مُضْغَةٌ إنْ صَلَحَتْ صَلَحَ سَائرُ الجَسَدِ وَهِيَ القَلْبُ » .

وقال ﷺ :

« لا يستقيمُ إيمانُ عَبْدٍ حتَّى يَستقيمَ لسانُه، ولا يستقيمُ لسانُه حتَّى يستقيمَ قلبُه » .

وقال ذو النون : سمعت عابدًا يقول :

« إن لله عباداً أبصروا فنظروا، فلما نظروا عَقَلوا، فلما عَقَلوا عَلِموا ، فلما عَلِموا عَمِلوا، فلما عملوا انتفعوا، رُفع الحجاب فيما بينهم وبينه ، فنظروا بأبصار قلوبهم إلى ما ذخر لهم من خفىِّ محجوب الغيوب ، فقطعوا كل محجوب ، وكان هو المنى والمطلوب » .

وقيل لذى النون :

- ما علامة الأنس بالله ؟

قال :

« إذا رأيتَ أنه يُوحشك مِنْ خَلْقه فإنه يُؤنسك بنفسه، وإذا رأيتَ أنه يُؤنسك بخَلْقه فاعلمْ أنه يُوحشك مِنْ نفسه » .

ثم قال :

« الدنيا لله أَمَــةٌ ، والخَلْق لله عَبيــدٌ : خَلَقَهُم للطاعــة ، وضَمِنَ لهم أرزاقهم ، فـحرصوا على أمـته وقد نهـاهم عنها ، وطلبـوا الأرزاق وقد ضمنها لهم ، فلا هم على أمته قدروا ، ولا هم فى أرزاقهم استزادوا » .

وقال ذو النون :

« المستــأنسُ بالله في وقت استـئناسه : يستــأنس بجمـيع ما يرى ويسمع ويحسُّ به فى ملكوت ربه ، والهَائب له : يَهَـابُ جميعَ ما يرى ويسمع ويحسُّ به فى ملكوت ربه . . ويستـأنس بالذَّرِّ فما دونه ويهابه » .

وقال :

« مَنْ آنَسَهُ الله بقُربه أعطاه العِلْمَ بغير تعب » .

وعن أبى عثمان سعيد بن الحكم السلمى ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« مَنْ رسختْ عَظَمَةُ الله فى صدره وجدَ لعبادته طعماً حلواً » .

وقال :

« مِنْ دلائل أهل المحبة بالله ألاَّ يأنسوا بسِوَى الله ، ولا يستوحشوا مع الله ؛ لأن حبيـبَ الله مَنْ أنسَ بالله ؛ لأن الله أجلُّ فى صدورهم أن يحبُّوه لغيره »(١) .

قال : وسئل ذو النون : ما فساد القلب ؟

قال :

« فسادُ القلب فسادُ النيَّة : إذا فَسَدَتِ النيَّة وَقَعَتِ البَلِيَّة » .

---

(١) أخرجه البيهقى .

وقال ذو النون :

« إذا لم يكن فى عملك حبُّ ثنـاء المخلوقين ولا مخافةُ ذمِّـهم ؛ فأنت حكيمٌ مُخلص إن شاء الله »[1] .

وقال :

« مَنْ أحَبَّ اللهَ استقلَّ كلَّ عملٍ يعمله » .

وقال :

« مَنْ لَمْ يعرفْ قَدْرَ النِّعَم سُلِبَها مِنْ حيثُ لا يعلم » .

وقيل له : مَنْ أقربُ إلى الكفر ؟

قال :

« ذو فَاقَةٍ » .

وقال :

« ما خلعَ اللهُ على عبد من عبـيده خلْعَةً أحسنَ من العقل ، ولا قَلَّده قلادةً أجـملَ من العلم ، ولا زيَّنه بزينةٍ أفـضلَ من الحِلْم ، وكَمَـالُ ذلك التقوى » .

وقال رجل لذى النون : متى أزهد فى الدنيا ؟

قال :

« إذا زهدتَ فى نفسك » .

وعن يوسف بن الحسين قال :

دخل ذو النون على مريض يعوده فرآه يئنُّ ، فقال :

(١) أخرجه أبو نعيم .

« ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يصبرْ على ضُرِّه » .

فأجاب المريضُ :

ـ ليس بصادقٍ في حبه مَنْ لم يتلذَّذْ بضُرِّه .

فقالَ ذو النونِ :

« ولا صَدَقَ في حبه مَنْ رَأى حبه لربه » .

وعن يوسف بن الحسين ، قال :

قلت لذى النون : متى أخالط الناس ؟

قال :

« إذا انمحى حُبُّ الدنيا من قلبك » .

وعن يوسف بن الحسين ، قال : سمعت ذا النون يقول :

كتب إليَّ بعض إخوانى وقد اعتلَّ : ادعُ الله لى .

فكتبت إليه :

« سَألْتَنى أن أدعو الله لك أن يزيلَ عنك النِّقَم ، واعلم يا أخى أن العِلَّة منزلةٌ يأنس إليها أهل الصَّفَا والهِمَم ، ومَنْ لم يَعُدَّ البلاءَ نعمةً فليس من الحكمة فى شىء ؛ فاسْتَحِ من الله أن تشكوه .. والسلام » .

وعن يوسف بن الحسين ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« إخراجُ الموجود حُسْنُ ظنٍّ بالمعبود » .

قال : وسئل ذو النون عن اسم الله الأعظم ، فقال :

ـ هو ذا ، أنا أقرأه عليكم فتعلَّموا . . فقرأ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾[١].

وقرأ:

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[٢].

ثم قال:

« إذا قرأتَ بهذا على ما تحبُّ يَنْفَسِحُ لك ».

---

(١) سورة الحشر: ١٨ - ٢٤.　　(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

وعن يوسف بن الحسين، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« إذا سألنى السائل ، وكان مُسْتَحِقاً للجواب؛ استفدتُ نصفَ الجواب من مسألته » .

وعن أبى عثمان سعيد بن الحكم، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« ما طَابَتِ الدنيا إلا بذِكْره ، ولا طـابتِ الآخرةُ إلا بعفوه ، ولا طابتِ الجنانُ إلا برؤيته » .

وعن محمد بن أحمد بن عبد الله، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« طُوْبَى لمن كـان شعـارُ قلبه الوَرَع ، ولـم يُعْمِ بَصَرَ قلبـهِ الطَّمَع ، وكان محاسِباً لنفسه فيما صَنَع » .

وقال :

«لا عَيْشَ إلا مع رجال تحنُّ قلوبهم إلى التقوى، وترتاحُ إلى الذِّكْر» .

ودقَّ عليه رجلٌ البابَ فشوَّش وقته ، فنظر إليه من عالم الهيئة . . وقال :

« اللهمَّ مَنْ شَغَلنى عنكَ فاشغلْهُ بكَ » .

وعن عبد الله بن سهل ، قال :

سألت ذا النون فقلت :

ـ متى أعرف ربى ؟

قال :

« إذا كان لك جليساً ، ولم تَرَ لنفسكَ سِواهُ أنيساً » .

قلت : فمتى أحبُّ ربى ؟

قال :

« إذا كان ما أَسْخَطَهُ عِنْدَكَ أمرَّ من الصبر » .

قلت : فمتى أشتاق إلى ربى ؟

قال :

« إذا جعلتَ الآخرةَ لكَ قرارًا، ولم تُسَمِّ الدنيا لكَ مسكناً وداراً » اهـ .

* * *

متناثرات وطرائف

هذه المتناثرات تجمع بعض الأمور المهمة مثل « ثلاثيات ذى النون» ولقد عُنِىَ ذو النون بالثلاثيات التى توضح أمرًا من الأمور وتجمع فى كلمات قليلة زوايا من موضوع عام .

وقد جمعنا - فى هذه المتناثرات - بعض ردوده على السؤال التقليدى : كيف حالك ؟ . . أو كيف أصبحت ؟ . . وهى ردود طريفة لم يلتزم فيها ذو النون الرد التقليدى .

وجمعنا - أيضاً . . فى هذه المتناثرات - بعض ما هو طريف من مفردات ذى النون .

كان ذو النون يقول فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾[1] :

« **كأنه الآن فى أذنى** » .

وسئل عن السماع والصوت الحسن ، فقال :

« **وَارِدٌ يزعجُ القلب إلى الحقّ ، فمن أصْغَى إليه بحقٍّ تحقَّق ، أو بنفسه تَزَنْدَق** ».

وسئل عن سماع العظة الحسنة بالنغمة الطيبة ، فقال :

« **مزامير أُنْسٍ فى مَقَاصِير قُدْسٍ ، بألحانِ توحيدٍ فى رياضِ تمجيدٍ، بمطرباتِ الغَوانِى فى تلك المَعانِى .. المؤدِّية بأهلها إلى النعيم الدائم فى مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدر** » .

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

ثم قال :

« **هذا طَعْمُ الخبز ، فكيف طَعْمُ النظر ؟** » .

قال : وسمعت ذا النون يقول ـ وقد وقف عليه رجل فسأله شيئاً ـ فقال له ذو النون :

« **إن المتكفِّل برزقك غير مُتَّهَم عليك** » .

وعن إسرافيل قال : سأل رجل ذا النون المصرى عن سؤال ، فقال له ذو النون :

« **قلبى لك مُقْفَلٌ ، فإن فُتِحَ لك أجبتُك .. وإن لم يُفْتَحْ لك فاعذرنى واتَّهِمْ نفسك** » .

وقال :

وسئل عن السفلة ، فقال :

« **مَنْ لا يبالى ما قالَ ولا ما قِيلَ فيه** » .

وقال :

« **إن للولىِّ خمسة أشياء خُصَّ بها دون الناس :**

الوَجْهُ الحَسَن ، والخُلُقُ الحَسَن ، والقلبُ الرَّحيم ، ولسانٌ لطيف ، واجتنابُ المحارم » .

وقال :

« **إن الله يَغَارُ أن يجمعَ بينَ أحبابه وأعدائه فى دار ، فلذلك جعلَ لكل فريقٍ دارًا** » .

وعن يوسف بن الحسين الرازى ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« اعلموا أن المحبَّ لله لا يعظمُ عـنده الإيثار ، لأنه ليس شيء أعظم عنده من الله ، فينبغي أن يُرَى عليه أثرُ ذلك مِنْ رفض الدنيا ، لأنه من المحال أن يجتـمع في القلب حبُّ الدنيا وحبُّ الله ، لأن من أحبَّ الله لم ينظر إلى غيره » .

وقال :

« طُوْبَى لمن تَطَهَّرَ ولَزِمَ الباب .. طُوْبَى لمن تَضَـمَّرَ للسِّباق .. طُوْبَى لمن أطاع الله أيام حياته » .

وقال :

« مَنْ وثقَ بالمقادير استراح » .

وروى محمد بن عبد الملك بن هاشم ، قال :

«سئل ذو النون : ما لنا لا نقوى على النوافل ؟

قال :

« لأنكم لا تُصحِّون الفرائض » .

وقيل : من أدوم الناس ذنبًا ؟

قال :

« مَنْ أحبَّ دنيا فانية » .

وقال ذو النون :

« إلهي .. لو أصبتُ مـوئلاً ـ في الشـدائد ـ غيـرَك ، أو ملجـأ ـ في المنازل ـ سـواك ، لحقَّ لي ألاَّ أعرض إليـه بوجـهي عنك . ولا أختـاره عليك ، لقديم إحـسانك إليَّ وحديثه ، وظاهـر مِنَّتك عليَّ وباطنها ، ولو تقطعتُ في البلاء إربًا إربًا ، وانصـبَّتْ عليَّ الشدائد صَبّاً صَبّاً ، ولا أجد مُشْتَكَى غـيرك ، ولا مُفَرّجاً لما بي عنِّي سواك.

فيا وارثَ الأرض ومَنْ عليها ، ويا باعثَ جميع مَنْ فيها ، وَرِّثْ أملى فيك منِّى أملى ، وبَلِّغْ هَمِّى فيك مُنتهَى وسائلى » .

وقال :

« **اطلبِ الحاجةَ بلسانِ الفقرِ ، لا بلسانِ الحِكَم »** .

وقال :

« **اسْتَحِ من الله أن تسأله ما تحبُّ وأن تأتى ما يكره »** .

وقال :

« **إن سرورك بالمعصية إذا ظفرتَ بها أشدُّ من المعصية »** .

وعن محمد بن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول ـ وقد جاءه رجل يسأله أن يدعو له ـ فقال :

« **إن كنت أيدتَ بصدق التوحيد فى الغيب ، فكَمْ من دعواتٍ سبقتْ لك، وإن كان غير ذلك فأىُّ دعاء ينفعك ؟! »** .

ويروى يوسف بن الحسين قائلاً :

بلغنى أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم فخرجت من مكة قاصداً إليه حتى وافيته فى جيزة مصر . .

ومكث يوسف بن الحسين يخدم ذا النون سنة ، ثم قال له :

يا أستاذ ، أنا رجل غريب ، وقد اشتقتُ إلى أهلى ، وقد خدمتك سنة ، وقد وَجَبَ حقى عليك ، وقيل لى إنك تعرف اسم الله الأعظم . . وقد جربَّتنى وعرفت أنى أهل لذلك ، فإن كنت تعرفه فعلِّمنى إياه .

قال: فسكت ذو النون عنى ولم يجبنى بشىء وأوهمنى أنه لعله يقول لى ويعلمنى، ثم سكت عنى ستة أشهر، فلما كان بعد ستة أشهر - من يوم مسألتى إياه - قال لى:

« يا أبا يعقوب .. ألستَ تعرف (فلاناً) - صديقنا - بالفسطاط، الذى يجيئنا ؟» .. وسَمَّى رجلاً.

فقلت: بلى.

قال: فأخرجَ إلىَّ من بيته طبقاً فوقه مكبَّة مشدوداً بمنديل .. فقال لى:

« أوصلْ هذا إلى مَنْ سَمَّيتُ لكَ بالفسطاط » .

قال: فأخذت الطبق لأؤديه، فإذا طبق خفيف يدل على أن ليس فى جوفه شىءٌ .. فلما بلغت الجسر - الذى بين الفسطاط والجيزة - قلت فى نفسى: ذو النون يبعث إلى رجل بهدية، وها أنا أرى طبقاً خفيفاً .. لأبصرنَّ أىَّ شىء فيه.

قال: فحللتُ المنديل، ورفعتُ المكبة، فإذا فأرة قد قفزت من الطبق فمرَّتْ.

قال: فاغتظتُ، وقلت: إنما سخر بى ذو النون، ولم يذهب وَهْمى إلى ما أراد فى الوقت.

قال: فجئت إليه وأنا مُغْضَبٌ، فلما رآنى تبسَّم وعرف القصة، وقال:

« يا مجنون .. ائتمنتُكَ فى فأرة فَخُنْتَنى .. أئتمنُكَ على اسم الله الأعظم ؟! .. قُمْ عنِّى، فارتحلْ .. ولا أراك بعد هذا » .

ومن كلامه :

« **لا يزالُ العارفُ ما دام في دار الدنيا مترددًا بين الفَقْر والفَخْر، فإذا ذَكَرَ اللهَ افتخَر ، وإذا ذَكَرَ نفسَه افتقَر** » .

وقال :

« **سَلْ ما بَدَا لك مِنْ أمره ونهيه .. وتَلَقَّ ذلك بالتسليم والرضا والخضوع .. ولا تنقِّبْ بعقلك عما قد أُخْفِيَ عنك من أسراره ، مثل القَدَر وغيره .. فإن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد** » .

يقول ذو النون :

« **ثلاثة من علامة التوفيق :**

الوقوع في عمل البِرِّ بلا استعداد له ، والسلامة من الذنب مع الميل إليه وقلة الهرب منه ، واستخراج الدعاء والابتهال » .

وقال يوسف بن الحسين :

سألت ذا النون :

- ما علامة الأخوَّة ؟

قال :

« **ثلاث : الصفاء ، والتعاون ، والوفاء ..**

فالصفاء في الدِّين ، والتعاون في المواساة ، والوفاء في البلاء » .

وقال ذو النون :

« **ثلاثة من أعلام الورع :**

تَرْك الشبهة باحتمال المضرَّة في المال والبدن ، وبَذْل الفَضْلَة خوفاً من دخول الخلل في الفريضة ، والكفُّ عن الفضول خشية قساوة القلب » .

وقال :

« ثلاثة من أعلام التُّقَى :

مفارقة الذنب ، وسرعة الدمعة ، والانتفاع بالموعظة » .

وقال :

« ثلاثة من أعمال الكمال :

تَرْك الجَوَلان في البلدان[1] ، وقلة الاغتباط للنعماء عند الامتحان، وصَفْو النفس في السر والإعلان » .

وقال :

« ثلاثة من أعلام المحبة :

الرضا في المكروه ، وحسن الظن في المجهول ، وحسن الاختيار في المحذور» .

« وثلاثة من أعلام الصواب :

الأنس به في جميع الأحوال ، والسكون إليه في جميع الأعمال ، وحب الموت بغلبة الشوق في جميع الأشغال » .

« وثلاثة من أعمال اليقين :

النظر إلى الله ـ تعالى ـ في كل شيء ، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال » .

---

(١) أي : لغير غرض صحيح .

« وثلاثة من أعمال الثقة بالله :

السخاء بالموجود ، وترك الطلب للمفقود ، والاستنابة إلى فضل الموجود » .

« وثلاثة من أعمال الشكر :

المقاربة من الإخوان فى النعمة ، واستغنام قضاء الحوائج قبل العطية ، واستقلال الشكر لملاحظة المِنَّة » .

« وثلاثة من أعلام الرضا :

ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب فى حشو البلاء » .

« وثلاثة من أعمال الأُنس بالله :

استلذاذ الخلوة ، والاستيحاش من الصحبة ، واستحلاء الوحدة » .

« وثلاثة من أعلام حسن الظن بالله :

قوة القلب،وفُسْحة الرجاء فى الزلَّة، ونفى الإِيَاس بحسن الإنابة» .

« وثلاثة من أعلام الشوق :

حبُّ الموت مع الراحة ، وبُغْضُ الحياة مع الدَّعَة ، ودوامُ الحزن مع الكفاية » .

وقال ذو النون :

« ثلاث من علامات الخوف :

الورع من الشبهات ملاحظةً للوعيد ، وحفظ اللسان مراقبةً لنظر العظيم ، ودوام الكَمَد إشفاقاً من غضب الحليم » .

« وثلاث من علامات الإخلاص :

استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤيتهم في الأعمال نظراً إلى الله ، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة بحسن عفو الله » .

« وثلاثة من أعلام الخمول :

ترك الكلام لمن يكفيه الكلام ، وترك الحرص في إظهار العلم عند القُرَناء ، ووجدان الألم لكراهة الكلام عند مخالفة الرأى، والاحتمال عن الورى إخباتاً [1] للرب ، ونسيان إساءة المسيء عفواً عنه ، واتساعاً عليه » .

« وثلاثة من أعلام التقوى :

تركُ الشهوة المذمومة مع الاستمكان منها ، والوفاءُ بالصالحات مع نفور النفس منها ، وردُّ الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها » .

« وثلاثة من أعلام الاتِّعاظ بالله :

الهربُ إليه من كل شيء، وسؤالُ كل شيء منه، والدلالُ في كل وقت عليه » .

« وثلاثة من أعلام الرجاء :

العبادةُ بحلاوة القلب ، والإنفاقُ في سبيل الله برؤية الثواب ، والمثابرةُ على فضائل الأعمال بخالص التنافس » .

« وثلاثة من أعلام الحب في الله :

بَذْلُ الشيء لصفاء الودِّ ، وتعطيلُ الإرادة لإرادة الله ، والسَّخَاءُ بالنفس ، والمشاركةُ في محبوبه ومكروهه بصفة العقد » .

---

(١) الإخبات : الخشوع .

« وثلاثة من أعلام الحياء :

وَزْنُ الكلام قبل التفوُّه به ، ومُجَانَبةُ ما يحتاج إلى الاعتذار منه ، وتركُ إجابة السفيه حِلْماً عنه » .

فأما الحياء من الله ـ تعالى ـ فهو ما قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« أنْ لا تَنْسَ المقابرَ والبِلَى ، وأن تحفظَ الرأسَ وما حوَى، وأن تتركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا » .

« وثلاثة من أعلام الأفضال :

صلةُ القاطِع ، وإعطاءُ المانِع ، والعفوُ عن الظالِم » .

« وثلاثة من أعلام الصِّدق :

مُلازَمة الصادقين ، والسُّكون عند نظر المنفوسين ، ووجدان الكراهة لاطِّلاع الخَلْق على السرائر ، واستقامة على الحق سراً وجهراً لإيثار رب العالمين » .

« وثلاثة من أعلام الانقطاع إلى الله :

تقديم العلم ، وتلقين الحِكَم ، وتأليل الفهم[1] » .

« وثلاثة من أعلام المروءة :

إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، ونشر الخُلُق الحَسَن ».

« وثلاثة من أعلام التودُّد :

التأنِّي في الأحداث ، والتوفُّر في الزَّلاَّت[2] ، والترفُّق في المقال » .

---

(١) أي : تحديد الفهم .

(٢) أي : المساعدة عند الشدائد .

« وثلاثة من أعلام التسليم :

مقابلة القضاء بالرضاء،والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء » .

« وثلاثة من أعلام الإيمان :

إسباغ الطهارات ، وارتعاش القلب عند الفرائض حتى يؤديها ، والتوبة عند كل ذنب خوفًا من الإصرار » .

« وثلاثة من أعلام حسن الخُلُق :

قلة الخلاف على المعاشرين ، وتحسين ما يرد عليه من أخلاقهم ، وإلزام النفس اللائمة فيما يختلفون فيه كَفّاً عن معرفة عيوبهم » .

« وثلاثة من أعلام الرحمة للخَلْق :

بكاء القلب لليتيم والمسكين ، وفقدان الشماتة بمصائب المسلمين ، وبذل النصيحة لهم متجرِّعاً لمرارة ظنونهم ، وإرشادهم إلى صالحهم ، وإن جهلوه وكرهوه » .

« وثلاثة من أعلام الاستغناء بالله :

التواضع للفقراء المتذلّلين ، والتعظُّم على الأغنياء المتكبِّرين ، وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين » .

« وثلاثة من أعلام الحياء :

وجدان الأُنس بفقدان الوحشة ، والامتلاء من الخلوة بإدمان التفكُّر، واستشعار الهيبة بخالص المراقبة » .

« وثلاثة من أعلام المعرفة :

الإقبال على الله ، والانقطاع إلى الله ، والافتخار بالله » .

« وثلاثة من أعلام الرُّشْد :

حسن المحاورة ، والنصح عند المشاورة ، والبِرُّ فى المجاورة » .

« وثلاثة من أعلام السعادة :

الفقه فى الدين ، والتيسير للعمل ، والإخلاص فى السعى » .

« وثلاثة من أعلام الصَّلاح فى الغِنَى :

الزهد فى الحرام تاركًا له ، وإخراج الحقوق من المال أداءً للفرض فيه ، والتواضع لجميع الناس خوفاً من المكر » .

« وثلاثة من أعلام الصَّلاح فى الفقر :

القناعة بالمقدَّر له من الرزق ، وطلاقة الوجه إظهاراً للشكر عن النعم ، وترك التواضع للمكثر طمعًا فيه » .

« وثلاثة من أعلام حب الآخرة :

كثرة البكاء والذكر لها، ودوام الشوق لها، وبغض الدنيا من أجلها» .

« وثلاثة من أعلام اليقين :

قلة المخالفة للناس فى العشرة وترك المدح لهم فى العطيَّة والتنزُّه عن ذمِّهم فى المنع والرَّوِيَّة » .

« وثلاثة من أعلام التَّوكُّل :

نقض العلائق ، وترك التملُّق فى العلائق ، واستعمال الصدق فى الخلائق » .

« وثلاثة من أعلام الصبر :

التباعد عن الخُلَطاء فى الشدة ، والسكون عليه مع تجرُّع غُصَص البَلِيَّة ، وإظهار الغِنَى مع حلول الفقر بساحة المعيشة » .

« وثلاثة من أعلام الزُّهْد :

قِصَرُ الأمل ، وحبُّ الفقر ، واستغناءٌ مع صبر » .

« وثلاثة من أعلام العبادة :

حبُّ الليل ليسهر بالتهجُّد والخلوة ، وكراهة الصبح لرؤية الناس والغفلة ، والبَدَار بالصالحات » .

ويمكن أن يُعدَّ من ثلاثياته ما حَدَّث به على بن عبد الله الكرخى ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« مفتاح العبادة الفكرة ، وعلامة الهوى متابعة الشهوات ، وعلامة التوكل انقطاع المطامع » .

ويروى عبد القدوس بن عبد الرحمن ، قال :

قيل لأبى الفيض ذى النون :

ـ كيف أصبحت ؟

قال :

« أصبحت تَعِباً إن نفعنى تعبى ، والموت يجدُّ فى طلبى » .

وقيل له : كيف أصبحت ؟

فقال :

« أصبحت مقيماً على ذنب ونعمة، فلا أدرى من الذنب أستغفر .. أم على النعمة أشكر ؟ » .

وقيل له : كيف أصبحت ؟

قال :

« أَصْبَحْتُ بَطَّالاً عن العِبَادة ، متلوثاً بالمعَاصِي .. أتمنى منازل الأبرار ، وأعمل عمل الأشرار » .

وأرسل الوليد بن عتبة الدمشقى إلى ذى النون كتاباً يسأله فيه عن حاله ، فكتب إليه :

« كتبتَ إليَّ تسألنى عن حالى ، فما عسيتُ أن أخبرك به من حالى وأنا بين خِلاَلٍ موجعاتٍ ؟ ..

أبكانى منها أربع :

حبُّ عينى للنظر .. ولسانى للفضول ، وقلبى للرياسة .. وإجابتى إبليس ـ لعنه الله ـ فيما يكرهه الله .

وأقلقنى منها أربع :

عينٌ لا تبكى من الذنوب المنتنة ، وقلبٌ لا يخشع عند نزول العظة ، وعقلٌ وَهَنَ فَهْمُهُ فى محبة الدنيا ، ومعرفةٌ كلما قبلتها وجدتنى بالله أجهل .

وأضنانى منها أربع :

أنِّى عدمتُ خيرَ خِصَال الإيمان : الحياء .. وعدمتُ خيرَ زاد الآخرة : التقوى .. وفنيتْ أيامى بمحبتى للدنيا ، وتضييعى قلبًا لا أقتنى مثله أبدًا » .

وسأله بعضهم عن حاله فقال :

« ما لى حالٌ أرضاها، ولا حالَ أرضاها .. كيف أرضى حالى لنفسى وأنا لا أفى بما أراد منِّى ؟!

.. أم كيف لا أرضى حـالى ولا يكون منِّى إلا مـا أراد من الأحوال ؟! ولست أدرى أيهمـا أحسن ؟ .. حُسْنُ حالى فى إحسـانه إلىَّ ، أم حُسْنُ حالى فى سوء حالى ؛ إذ كان هو المختار لى ؟! » .

وقال :

« مَنْ وثقَ بالمقادير استراح، ومَنْ تقرَّب قرب، ومن صفَا صُفِيَ له » .

والحق - فى نظر ذى النون - لا يمكن وصفه إلا بصفات السلب، ولذا يقول :

« كلُّ ما تصوَّر فى وَهْمِكَ فالله بخلافِ ذلك » .

وقال :

« مَنْ أرادَ التواضعَ : فَلْيُـوَجِّهْ نَفْسَهُ إلى عظمـةِ الله .. فـإنها تذوبُ وتصفو .

.. ومَنْ نظرَ إلى سلطانِ الله ذهبَ سلطانُ نفسـه : لأن النفوسَ كلَّها فقيرةٌ عند هيبته » .

وقال :

« احذرْ أن تنقطعَ عن الله فتكونَ مخدوعاً .. وكلُّ مَنْ نَظَرَ إلى عطائهِ ولم ينظرْ إليه فهو مخدوع » .

وقال :

« أهل القـرآن هم الذين أنْصَبُـوا الأبدانَ حتى نحلتْ أبدانهم ، وذبلتْ شفاهُهم ، وهملتْ عيونُهم » .

رضى الله عن ذى النون ، وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا ومولانا محمد - الفاتح لِمَا أُغْلِق ، والخاتم لِمَا سَبَق - وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

مراجع الكتاب

١ - القرآن الكريم .
٢ - أخبار العارفين لابن باكويه .
٣ - إخبار العلماء بأخبار الحكماء لعلى بن يوسف القفطى .
٤ - تاريخ ابن عساكر .
٥ - الجامع الصحيح للترمذى .
٦ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبى نعيم الأصبهانى .
٧ - السر المكنون فى مناقب ذى النون لجلال الدين السيوطى .
٨ - السنن الكبرى للبيهقى .
٩ - شعب الإيمان للبيهقى .
١٠ - صحيح البخارى .
١١ - صحيح مسلم .
١٢ - طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى .
١٣ - الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى .
١٤ - عوارف المعارف للسهروردى .
١٥ - الكواكب الدرية للمناوى .
١٦ - مجموعة ما ترجم عن المستشرق « نيكلسون » .
١٧ - محاسن التأويل لجمال الدين القاسمى .
١٨ - المسند للإمام أحمد بن حنبل .
١٩ - الموطأ للإمام مالك بن أنس .

* * *

الفهرس

•••



عــربيــة للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

* يتناول هذا الكتاب حياة واحد من أهم رجال التصوف الإسلامى ، بل قطب كبير من أقطابهم .. إنه « ذو النون المصرى » ؛ العارف بالله، والعالم العابد ، والورع الزاهد ، والمتوكل السائح، والمناجى البليغ ، والواعظ الحكيم ، والولىّ الكبير صاحب الكرامات ، والمحدّث المتّبع للسُنّة ، ذو العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، والصفات الكاملة ، والنفس العالمة العاملة ، والمحاسن الجزيلة ، والأقوال والأفعال الحميدة الجليلة ، الذى زهت به مصر وديارها ، وأشرق بنوره ليلها ونهارها .

* ويشتمل الكتاب على دراسات مهمة عن حياة ذى النون المصرى وعلاقته بالحكام وذوى النفوذ والسلطان ، وموقفه من الفقهاء ، ومعاملاته مع المريدين وغيرهم ، وآرائه وتأملاته ونظراته العميقة حول الذكر والورع والزهد والصبر والتقوى والرضا والتوكل والاجتهاد والسياحة والطاعة والاستغناء بالخالق عن المخلوق ، والخوف من الله والانقطاع إليه والأمل فيه ، والمعرفة والمحبة والودّ والأنس والشوق والخلوة والأحوال والمقامات وأسرار الملكوت ... إلى غير ذلك مما يهم المسلم الراغب فى معيّة الله الودود الرحيم .

* ودار الرشاد إذ تقدّم إلى جماهير القراء فى مصر والعالم العربى والأمة الإسلامية كتاب « ذو النون المصرى » لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود .. تدعو الله العلىّ القدير أن ينفع به المؤمنين ، وأن يهدى به غيرهم إلى سبيله القويم ، وأن يتقبّله خالصاً لوجهه الخالد الكريم .

الناشر

عصام رشاد